بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِى ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [غافر : ٣] .

وصلى اللّهم وسَلّم على سيدنا محمد نبى التوبة (١) وعلى آله وأزواجه والتابعين بإحسان إلى يوم الدين .. ثم أما بعد :

روى عَنْ الأَغَرِّ المُزَنِيِّ وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ أَنَّ رَسُولَ اللَّهَ صلى الله عليه وسلم قَالَ : « إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَىَ قَلْبِي. وَإِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ » (٢) .

وعن أَبِي بُرْدَةَ قَالَ : سَمِعْتُ الأَغَرَّ وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ يُحَدِّثُ ابْنَ عُمَرَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يَا أَيُّهَا

---

(١) ورد هذا الاسم فى حديث مسلم [١٦٦٠] وفى حديث أبى داود [٥١٦٥] . قال صاحب تحفة الأحوذى : قال فى مجمع البحار : نبى التوبة لأنه تواب يستغفر كل يوم سبعين ، أو مائة ؛ وقال فيه أيضاً : نبى التوبة والرحم ؛ أى : جاء بقبولها بالقول والاعتقاد ، لا يقتل الأنفس ، وجاء بالتراحم نحو : ﴿ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ ﴾ [الفتح : ٢٩] أهـ .

(٢) أخرجه مسلم [٤١/٢٧٠٢] .

النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللَّهِ . فَإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِائَةَ مَرَّةٍ » [١] .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ » [٢] .

قال الإمام النووي : قوله ﷺ : « إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة » قال أهل اللغة : الغين بالغين المعجمة والغيم بمعنى والمراد هنا ما يتغشى القلب .

قال القاضي : قيل المراد الفترات والغفلات عن الذكر الذي كان شأنه الدوام عليه فإذا فتر عنه أو غفل عَدَّ ذلك ذنبا واستغفر منه .

قال : وقيل هو همه بسبب أمته وما اطَّلَعَ عليه من أحوالها بعده ، فيستغفر لهم .

وقيل : سببه اشتغاله بالنظر في مصالح أمته وأمورهم ومحاربة العدو ومداراته ، وتأليف المؤلفة ، ونحو ذلك فيشتغل بذلك من عظيم مقامه فيراه ذنبا بالنسبة إلى عظيم منزلته وإن كانت هذه الأمور من أعظم الطاعات وأفضل الأعمال فهي

---

(١) أخرجه مسلم [٤٢/٢٧٠٢] .

(٢) أخرجه مسلم [٤٣/٢٧٠٣] .

نزول عن عالي درجته ورفيع مقامه من حضوره مع الله تعالى ومشاهدته ومراقبته وفراغه مما سواه فيستغفر لذلك .

وقيل : يحتمل أن هذا الغين هو السكينة التي تغشى قلبه لقوله تعالى : ﴿ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ﴾ ويكون استغفاره إظهارا للعبودية والافتقار وملازمة الخشوع وشكرا لما أولاه .

وقد قال المحاشي: خوف الأنبياء والملائكة خوف إعظام وإن كانوا آمنين عذاب الله تعالى .

وقيل : يحتمل أن هذا الغين حال خشية وإعظام يغشى القلب ويكون استغفاره شكرا كما سبق ، وقيل : هو شيء يعتري القلوب الصافية مما تتحدث به النفس فهوَّشها .

قوله صلى الله عليه وسلم : « يا أيها الناس توبوا إلى الله فإني أتوب في اليوم مائة مرة » هذا الأمر بالتوبة موافق لقوله تعالى : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [النور : ٣١] وقوله تعالى : ﴿ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ [التحريم : ٨] .

والتوبة أهم قواعد الإسلام وهي أول مقامات سالكي طريق الآخرة . قوله ﷺ : « من تاب قبل أن تطلع الشمس من

مغربها تاب الله عليه » قال العلماء : هذا حد لقبول التوبة وقد جاء في الحديث الصحيح : « إن للتوبة بابا مفتوحا فلا تزال مقبولة حتى يغلق فإذا طلعت الشمس من مغربها أغلق وامتنعت التوبة على من لم يكن تاب قبل ذلك » [(1)] وهو معنى قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ﴾ .

ومعنى تاب الله عليه : قَبِل توبته ورضي بها .

وللتوبة شرط آخر وهو أن يتوب قبل الغرغرة كما جاء في الحديث الصحيح وأما في حالة الغرغرة وهي حالة النزع فلا تقبل توبته ولا غيرها ، ولا تنفذ وصيته ولا غيرها .

---

(1) روى الترمذى [٣٥٣٥] وابن ماجه [٤٠٧٠] عن صفوان ابن عسال رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن من قبل مغرب الشمس باباً مفتوحاً عرضه سبعون سنة ، فلا يزال ذلك الباب مفتوحاً للتوبة ، حتى تطلع الشمس من نحوه فإذا طلعت من نحوه ، لم ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً » . وحسنه الألبانى .

وقال الحافظ في الفتح : التوبة ترك الذنب على أحد الأوجه . وفي الشرع ترك الذنب لقبحه ، والندم على فعله ، والعزم على عدم العود ، ورد المظلمة إن كانت ، أو طلب البراءة من صاحبها وهي أبلغ ضروب الاعتذار ؛ لأن المعتذر إما أن يقول : لا أفعل ، فلا يقع الموقع عند من اعتذر له لقيام احتمال أنه فعل لا سيما إن ثبت ذلك عنده عنه ، أو يقول : فعلت لأجل كذا ويذكر شيئا يقيم عذره وهو فوق الأول ، أو يقول : فعلت ولكن أسأت وقد أقلعت وهذا أعلاه . انتهى من كلام الراغب .

وقال : القرطبي في المفهم : اختلفت عبارات المشايخ فيها فقائل يقول إنها الندم ، وآخر يقول : إنها العزم على أن لا يعود ، وآخر يقول : الإقلاع عن الذنب ، ومنهم من يجمع بين الأمور الثلاثة وهو أكملها غير أنه مع ما فيه غير مانع ولا جامع .

أما أولا : فلأنه قد يجمع الثلاثة ولا يكون تائبا شرعا إذ قد يفعل ذلك شحًا على ماله أو لئلا يُعَيِّرُهُ الناس به ولا تصح التوبة الشرعية إلا بالإخلاص ، ومن ترك الذنب لغير الله لا يكون تائبا اتفاقا .

وأما ثانيا : فلأنه يخرج منه من زنى مثلا ثم جُبَّ ذُكَرُهُ فإنه لا يتأتى منه غير الندم على ما مضى ، وأما العزم على عدم العود فلا يتصور منه ، قال : وبهذا اغتر من قال : إن الندم يكفي في حد التوبة ، وليس كما قال ؛ لأنه لو ندم ولم يقلع وعزم على العود لم يكن تائبا اتفاقا ، قال : وقال بعض المحققين : هي اختيار ترك ذنب سبق حقيقة أو تقديرا لأجل الله قال : وهذا أسَدُّ العبارات وأجمعها لأن التائب لا يكون تاركا للذنب الذي فرغ لأنه غير متمكن من عينه لا تركا ولا فعلا ، وإنما هو متمكن من مثله حقيقة ، وكذا من لم يقع منه ذنب إنما يصح منه اتقاء ما يمكن أن يقع لا ترك مثل ما وقع فيكون متقيا لا تائبا ، قال : والباعث على هذا تنبيه إلهي لمن أراد سعادته لقبح الذنب وضرره ؛ لأنه سم مهلك يُفَوِّتُ على الإنسان سعادة الدنيا والآخرة ويحجبه عن معرفة الله تعالى في الدنيا ، وعن تقريبه في الآخرة .

قال : ومن تفقد نفسه وجدها مشحونة بهذا السم فإذا وفق انبعث منه خوف هجوم الهلاك عليه ، فيبادر بطلب ما يدفع

به عن نفسه ضرر ذلك ، فحينئذ ينبعث منه الندم على ما سبق والعزم على ترك العود عليه . قال : ثم اعلم أن التوبة إما من الكفر وإما من الذنب ، فتوبة الكافر : مقبولة قطعا وتوبة العاصي : مقبولة بالوعد الصادق ، ومعنى القبول : الخلاص من ضرر الذنوب حتى يرجع كمن لم يعمل .

ثم توبة العاصي إما من حق الله وإما من حق غيره ، فحق الله تعالى يكفي في التوبة منه الترك على ما تقدم ، غير أن منه ما لم يكتف الشرع فيه بالترك فقط بل أضاف إليه القضاء أو الكفارة وحق غير الله يحتاج إلى إيصالها لمستحقها وإلا لم يحصل الخلاص من ضرر ذلك الذنب ، لكن من لم يقدر على الإيصال بعد بذله الوسع في ذلك فعفو الله مأمول فإنه يضمن التبعات ويبدل السيئات حسنات . والله أعلم .

قلت : حكى غيره عن عبد الله بن المبارك في شروط التوبة زيادة فقال : الندم والعزم على عدم العود ورَدُّ المظلمة وأداء ما ضَيَّعَ من الفرائض ، وأن يعمد إلى البدن الذي رَبَّاه بالسحت فيذيبه بالهم والحزن حتى ينشأ له لحم طيب ، وأن يذيق نفسه

ألم الطاعة كما أذاقها لذة المعصية . قلت : وبعض هذه الأشياء مكملات . وقد تمسك من فسر التوبة بالندم بما رواه أحمد وابن ماجه وغيرهما من حديث ابن مسعود رفعه : « الندم توبة »[1] ولا حجة فيه لأن المعنى : الحض عليه وأنه الركن الأعظم في التوبة ، لا أنه التوبة نفسها ، وما يؤيد اشتراط كونها لله تعالى وجود الندم على الفعل ولا يستلزم الإقلاع عن أصل تلك المعصية ، كمن قتل ولده ، مثلا وندم لكونه ولده وكمن بذل مالا في معصية ثم ندم على نقص ذلك المال مما عنده .

واحتج من شرط في صحة التوبة من حقوق العباد أن يَرُدَّ تلك المظلمة بأن من غصب أَمَةً فزنى بها لا تصح توبته إلا بردِّها لمالكها ، وأن من قتل نفسا عمدا لا تصح توبته إلا بتمكين نفسه من ولي الدم ليقتص أو يعفو .

قلت : وهذا من جهة التوبة من الغصب ومن حق المقتول

(١) رواه أحمد في المسند [٣٧٦/١] وابن ماجه [٤٢٥٢] . وصححه الألباني .

واضح ، ولكن يمكن أن تصح التوبة من العود إلى الزنا وإن استمرت الأَمَةُ في يده ومن العود إلى القتل وإن لم يُمَكِّنْ من نفسه .

وزاد بعض من أدركناه في شروط التوبة أمورا أخرى: منها أن يفارق موضع المعصية ، وأن لا يصل في آخر عمره إلى الغرغرة ، وأن لا تطلع الشمس من مغربها ، وأن لا يعود إلى ذلك الذنب ، فإن عاد إليه بان أن توبته باطلة .

قلت : والأول مستحب ، والثاني والثالث داخلان في حد التكليف ، والرابع الأخير عُزِيَ للقاضي أبي بكر الباقلاني . ويَرُدُّهُ الحديث الآتي بعد عشرين بابا وقد أشرت إليه في « باب فضل الاستغفار » وقد قال الحليمي في تفسير « التواب » في الأسماء الحسنى : أنه العائد على عبده بفضل رحمته ، كلما رجع لطاعته وندم على معصيته فلا يحبط عنه ما قدمه من خير ولا يحرمه ما وعد به الطائع من الإحسان .

وقال الخطابي : « التواب » الذي يعود إلى القبول كلما عاد العبد إلى الذنب وتاب .

وروي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : إِنَّ عَبْدًا أَصَابَ ذنباً - وَرُبَّمَا قَالَ أَذْنَبَ ذنباً - فَقَالَ رَبِّ أَذْنَبْتُ وَرُبَّمَا قَالَ أَصَبْتُ فَاغْفِرْ لِي ، فَقَالَ رَبُّهُ : أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ ، غَفَرْتُ لِعَبْدِي ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أَصَابَ ذنباً - أَوْ أَذْنَبَ ذنباً - فَقَالَ رَبِّ أَذْنَبْتُ أَوْ أَصَبْتُ آخَرَ فَاغْفِرْهُ ، فَقَالَ : أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ ، غَفَرْتُ لِعَبْدِي . ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أَذْنَبَ ذنباً وَرُبَّمَا قَالَ : أَصَابَ ذنباً ، قَالَ قَالَ : رَبِّ أَصَبْتُ - أَوْ قَالَ أَذْنَبْتُ آخَرَ فَاغْفِرْهُ لِي ، فَقَالَ : أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ ، غَفَرْتُ لِعَبْدِي ثَلَاثًا فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ [1] .

قال الحافظ في الفتح : قال ابن بَطَّال : في هذا الحديث أن المُصِرَّ على المعصية في مشيئة الله تعالى ، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له مُغَلِّبا الحسنة التي جاء بها ، وهي اعتقاده أن له ربا خالقا يعذبه ويغفر له ، واستغفاره إياه على ذلك يدل عليه

---

(1) أخرجه البخاري [٧٠٦٨] ومسلم [٢٩/٢٧٥٨] .

قوله : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ [الأنعام : ١٦٠] ولا حسنة أعظم من التوحيد ، فإن قيل : إن استغفاره ربه توبة منه ، قلنا : ليس الاستغفار أكثر من طلب المغفرة وقد يطلبها المُصِرُّ والتائب ولا دليل في الحديث على أنه تائب مما سأل الغفران عنه ؛ لأن حد التوبة الرجوع عن الذنب والعزم أن لا يعود إليه والإقلاع عنه والاستغفار بمجرده لا يُفهَم منه ذلك . انتهى .

وقال غيره شروط التوبة ثلاثة : الإقلاع ، والندم ، والعزم على أن لا يعود . والتعبير بالرجوع عن الذنب لا يفيد معنى الندم ، بل هو إلى معنى الإقلاع أقرب ، وقال بعضهم : يكفي في التوبة تحقق الندم على وقوعه منه ؛ فإنه يستلزم الإقلاع عنه والعزم على عدم العود فهما ناشئان عن الندم لا أصلان معه ، ومن ثم جاء الحديث : « الندم توبة » .

وقال القرطبي في المفهم : يدل هذا الحديث على عظيم فائدة الاستغفار وعلى عظيم فضل الله وسعة رحمته وحلمه وكرمه ، لكن هذا الاستغفار هو الذي ثبت معناه في القلب مقارنا

للسان لينْحَلَّ به عقد الإصرار ، ويحصل معه الندم ، فهو ترجمة للتوبة ، ويشهد له حديث : « خياركم كل مفتن تواب » [1] ومعناه الذي يتكرر منه : الذنب والتوبة ، فكلما وقع في الذنب عاد إلى التوبة ، لا من قال : أستغفر الله ، بلسانه وقلبه مُصِرٌّ على تلك المعصية ، فهذا الذي استغفاره يحتاج إلى الاستغفار .

قلت : ويشهد له ما أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث ابن عباس مرفوعا : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له والمستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزئ بربه » والراجح أن قوله « والمستغفر » إلى آخره موقوف وأوله عند ابن ماجه والطبراني من حديث ابن مسعود وسنده حسن [2] وحديث « خياركم كل مفتن تواب » ذكره في مسند الفردوس عن عليٍّ .

قال القرطبي : وفائدة هذا الحديث أن العود إلى الذنب وإن كان أقبح من ابتدائه لأنه انضاف إلى ملابسة الذنب نقض التوبة ، لكن العود إلى التوبة أحسن من ابتدائها لأنه انضاف

(١) مسند الشهاب [١٢٧١] عن عليٍّ رضى الله تعالى عنه .
(٢) رواه ابن ماجه [٤٢٥٠] وحسنه الألبانى .

إليها ملازمة الطلب من الكريم والإلحاح في سؤاله والاعتراف بأنه لا غافر للذنب سواه .

قال النووي في الحديث : إن الذنوب ولو تكررت مائة مرة بل ألفا وأكثر وتاب في كل مرة قبلت توبته ، أو تاب عن الجميع توبة واحدة صحت توبته ، وقوله : « اعمل ما شئت » معناه : ما دمت تذنب فتتوب غفرت لك .

وذكر في « كتاب الأذكار » عن الربيع بن خيثم أنه قال : لا تقل : أستغفر الله وأتوب إليه ، فيكون ذنبا وكذبا إن لم تفعل ، بل قل : اللهم اغفر لي وتب عليّ . قال النووي : هذا حسن وأما كراهية : أستغفر الله ، وتسميته كذبا فلا يوافق عليه ، لأن معنى أستغفر الله : أطلب مغفرته ، وليس هذا كذبا ، قال : ويكفي في رَدِّهِ حديث ابن مسعود بلفظ : « من قال : أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه غفرت ذنوبه وإن كان قد فَرَّ من الزحف » [1] .

(١) رواه الترمذى [٣٥٧٧] وأبى داود [١٥١٧] عن بلال بن يسار بن زيد مولى النبى ﷺ عن أبيه عن جده وصححه الألبانى ورواه الحاكم [٢/١٢٨/٢٥٥٠] عن ابن مسعود .

قلت : هذا في لفظ « أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم » ، وأما « أتوب إليه » فهو الذي عنى الربيع رحمه الله أنه كذب ، وهو كذلك إذا قاله ولم يفعل التوبة كما قال .

وفي الاستدلال للرَدِّ عليه بحديث ابن مسعود نظر لجواز أن يكون المراد منه ما إذا قالها وفعل شروط التوبة ، ويحتمل أن يكون الربيع قصد مجموع اللفظين لا خصوص « أستغفر الله » فيصح كلامه كله والله أعلم .

ورأيت في الحلبيات للسبكي الكبير : الاستغفار طلب المغفرة إما باللسان أو بالقلب أو بهما ، فالأول : فيه نفع لأنه خير من السكوت ، ولأنه يعتاد قول الخير . والثاني : نافع جدا .

والثالث : أبلغ منهما لكنهما لا يمحصان الذنب حتى توجد التوبة فإن العاصي المصر يطلب المغفرة ولا يستلزم ذلك وجود التوبة منه إلى أن قال : والذي ذكرته من أن معنى الاستغفار هو غير معنى التوبة هو بحسب وضع اللفظ لكنه غلب عند كثير من الناس أن لفظ « أستغفر الله » معناه : التوبة ، فمن كان ذلك معتقده فهو يريد التوبة لا محالة ، ثم قال : وذكر

بعض العلماء أن التوبة لا تتم إلا بالاستغفار لقوله تعالى : ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ﴾ والمشهور أنه لا يشترط .

وقال النووي : اعلم أن كلّ من ارتكب معصيةً لزمه المبادرةُ إلى التوبة منها والتوبةُ من حقوق اللّه تعالى يُشترط فيها ثلاثة أشياء : أن يُقلع عن المعصية في الحال ، وأن يندمَ على فعلها ، وأن يَعزِمَ ألا يعود إليها .

والتوبةُ من حقوق الآدميين يُشترط فيها هذه الثلاثة ، ورابع : وهو ردّ الظلامة إلى صاحبها أو طلب عفوه عنها والإبراء منها ، فيجبُ على المغتاب التوبة بهذه الأمور الأربعة ؛ لأن الغيبة حقّ آدمي ولا بدّ من استحلاله مَن اغتابَه ، وهل يكفيه أن يقول : قد اغتبتُك فاجعلني في حلّ ، أم لا بُدَّ أن يبيّنَ ما اغتابه به ؟ فيه وجهان لأصحاب الشافعي رحمهم اللّه : أحدهما : يُشترط بيانُه ، فإن أبرأه من غير بيانه لم يصحّ كما لو أبرأه عن مال مجهول . والثاني : لا يُشترط لأن هذا مما يُتسامحُ فيه فلا يُشترط علمه بخلاف المال . والأوّل أظهرُ لأن الإنسانَ قد يسمحُ بالعفو عن غيبة دونَ غيبة ، فإن كان صاحبُ الغيبةِ ميّتاً

أو غائباً فقد تعذّرَ تحصيلُ البراءة منها ، لكن قال العلماء : ينبغي أن يُكثرَ الاستغفار له والدعاء ويُكثر من الحسنات .

واعلم أنه يُستحبّ لصاحب الغِيبة أن يبرئه منها ولا يجبُ عليه ذلك ؛ لأنه تبرّعٌ وإسقاطُ حقّ ، فكان إلى خِيرته ولكن يُستحبّ له استحباباً متأكداً الإبراء ليخلّصَ أخاه المسلم من وبال هذه المعصية ويفوزَ هو بعظيم ثواب اللّه تعالى في العفو ومحبة اللّه سبحانه وتعالى ، قال اللّه تعالى : ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] .

وطريقةُ في تطييب نفسه بالعفو أن يذكّرَ نفسَه أن هذا الأمر قد وقعَ ولا سبيلَ إلى رفعه فلا ينبغي أن أُفوّتَ ثوابَه وخلاصَ أخي المسلم وقد قال اللّه تعالى : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الشورى : ٤٣] . وقال تعالى : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾ [الأعراف : ١٩٩] . والآيات بنحو ما ذكرنا كثيرة .

وفي الحديث الصحيح أن رسول اللّه ﷺ قال : « .. اللّهُ في عَوْنِ العَبْدِ ما كَانَ العَبْدُ في عَوْنِ أخيه .. » [1] .

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم [٣٨/٢٦٩٩] عن أبي هريرة.

وقد قال الشافعي رحمه اللّه : من اسْتُرضي فلم يرضَ فهو شيطان . وقد أنشد المتقدّمونَ في هذا المعنى :

قيلَ لي قد أساءَ إليك فـلانٌ ... ومُقام الفَتى على الذُّلِّ عَارٌ .

قلتُ قدْ جاءَنَا وأحْدَثَ عُذْراً ... دِيةُ الذنبِ عِندنَا الاعْتذَارُ .

فهذا الذي ذكرناهُ من الحثّ على الإبراء عن الغيبة هو الصواب . وأما ما جاء عن سعيد بن المسيب أنه قال : لا أُحلّلُ مَن ظلمني ، وعن ابن سيرين : لم أُحرّمها عليه فأُحلّلَهَا له لأن اللّه تعالى حرّم الغيبةَ عليه ، وما كنتُ لأُحلّلَ ما حرّمه اللّه تعالى أبداً . فهو ضعيفٌ ، أو غلطٌ ، فإن المُبرِىءَ لا يحلّلُ محرّماً وإنما يُسقط حقاً ثبتَ له ، وقد تظاهرت نصوصُ الكتاب والسنّة على استحباب العفو وإسقاط الحقوق المختصّة بالمسقِط . أو يُحمل كلامُ ابن سيرين على أني لا أُبيح غيبتي أبداً وهذا صحيح فإن الإنسانَ لو قال : أبحتُ عرضي لمن اغتابني لم يَصِرْ مباحاً بل يَحرمُ على كلِّ أحدٍ غِيبتُه كما يَحرم غيبةَ غيره .

وأما الحديث : « أيَعْجزُ أحَدُكُمْ أنْ يَكُونَ كأبي ضَمْضَمٍ ؟

كانَ إذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ قالَ إنِّي تَصَدَّقْتُ بِعِرْضِي على النَّاسِ »[1]

فمعناه : لا أطلبُ مَظلمتي ممّن ظلمني لا في الدنيا ولا في الآخرة ، وهذا يَنفعُ في إسقاط مَظلمة كانت موجودة قبل الإبراء .

وهذا الكتاب شذرات من فيض الله تعالى على شيخنا الإمام محمد متولى الشعراوى ، جمعناها من كتبه وتسجيلاته ثم شرحناها وعلقنا عليها ، وتم ضبط أحاديثها وتخريجها على مصادرها ، والحكم عليها صحة وضعفاً من خلال كلام علماء الحديث . والله أسأل أن ينفع بها قارئها وكاتبها وناشرها ، و أن يجزى شيخنا الجليل عما قدم للإسلام والمسلمين خير الجزاء ، وأن يجعل ثواب ذلك خالصاً له وفى ميزان حسناته يوم لا ينفع مال ولا بنون . إنه سبحانه ولى ذلك والقادر عليه . و صَلِّ اللّهم على سيدنا محمد وآله والحمد لله رب العالمين .

ربيع الأول ١٤٢٢ هـ — عبد الله حجاج

يـونيـه ٢٠٠١ م

---

(١) رواه أبو داود [٤٨٨٦] عن قتادة رضى الله تعالى عنه و [٤٨٨٧] عن عبد الرحمن بن عجلان وقال الألبانى : صحيح مقطوع .

شرع الله تعالى التوبة رحمة لحركة الحياة كلها ؛ لأنه إذا لم يكن هناك توبة لمرتكب المعصية أصبح كل من ارتكب ذنباً - ولو صغيرًا مما يطلق عليه اللمم - مصيره إلى النار .

وإذا علم الإنسان أن مصيره النار مهما فعل ، فإنه يستشرى فى الذنب ، ويزداد فى الإثم ما دام لا فرق بين ذنب واحد وذنوب متعددة . ولكن حين يعلم أى إنسان يخطئ أن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيئ الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها[1] لا يزداد فى إثمه ولا يتمادى فى شروره .

إذن .. ففتح باب التوبة ليس رحمة للفرد فقط ، بل هو رحمة للمجتمع كله ؛ لأنها تجعل المجرم يكف عن إجرامه طمعاً فيما عند الله ، ورغبة فى العفو .

---

(١) أخرجه مسلم [٣١/٢٧٥٩] عن أبى موسى رضى الله تعالى عنه .

والله سبحانه وتعالى هو : ﴿ ٱلتَّوَّابُ ﴾ [البقرة : ٣٧] والتَّواب صيغة مبالغة فى قبول التوبة ، والمعنى : أنه يقبل التوبة من عباده ويعفو ، مهما تكرر الذنب ما دام العبد يرغب فى الرجوع إلى الله تعالى (١) .

(١) أخرج مسلم [٢٩/٢٧٥٨] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فيما يحكى عن ربه عز وجل قال : « أذنَبَ عبدى ذنبًا ، فعلم أن له ربا يغفر الذنب ، ويأخذ بالذنب . ثم عاد فأذنب ، فقال : أى رب ! اغفر لى ذنبى . فقال : تبارك وتعالى عبدى أذنب ذنبًا ، فعلم أن له ربًا يغفر الذنب ، ويأخذ بالذنب . ثم عاد فأذنب ، فقال : أى رب ! اغفر لى ذنبى . فقال تبارك وتعالى : عبدى أذنب ذنبا فعلم أن له ربًا يغفر الذنب ، ويأخذ بالذنب . ثم عاد فأذنب ، فقال : أى رب ! اغفر لى ذنبى . فقال تبارك وتعالى : أذنب عبدى ذنبًا . فعلم أن له رباً يغفر الذنب ، ويأخذ بالذنب . اعمل ما شئت فقد غفرت لك » . ووافقه البخارى [٧٥٠٧] .
قال الإمام النووى : « وهذه الأحاديث ظاهرة فى الدلالة فى أنه لو تكرر الذنب مائة مرة ، أو ألف مرة ، أو أكثر ، وتاب =

= فى كل مرة ، قُبلت توبته ، وسقطت ذنوبه ، ولو تاب عن الجميع توبة واحدة بعد جميعها صحت توبته » .
مسلم بشرح النووى [٨٨/٩] .

قلت : ودليله فى ذلك ما أخرجه مسلم [٤٦/٢٧٦٦] ، والبخارى [٣٤٧٠] وابن ماجه [٢٦٢٢] عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه قال : إن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعةً وتسعينَ نفسًا . فسأل عن أَعْلَم أهل الأرض ، فَدُلَّ على راهب . فأتاه فقال : إنه قتل تسعة وتسعين نفسًا ، فهل له من توبة ؟ فقال : لا . فقتله ، فكمل به مائة ، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فَدُلَّ ، على رجل عالم . فقال : إنه قتل مائة نفس ، فهل له من توبة ؟ فقال : نعم . ومن يحول بينه وبين التوبة ؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسًا يعبدون الله فاعبد الله معهم ، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء . فانطلق حتى إذا نصَّف الطريق أتاه الموت . فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب . فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائبًا مُقبلًا بقلبه إلى الله . وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيرًا قط =

= فأتاهم ملك فى صورة آدمى فجعلوه بينهم . فقال : قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى ، فهو له . فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التى أراد ، فقبضته ملائكة الرحمة » .

ooo

الله تعالى يفرح بتوبة عبده

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر : ٥٣] ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة ، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها ، فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح » (١) .

(١) أخرجه مسلم [٧/٢٧٤٧] عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه .

وعنده [١/٢٦٧٥] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ قال: قال الله عز وجل : أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه حيث يذكرنى ، والله لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة . ومن تقرب إلى شبرًا تقربت =

وتخيل وأنت مسافر فى صحراء جرداء ، بعيدة تماماً عن أى عمران ، ثم جلست لتستريح ومعك الجمل الذى تسافر عليه وعليه الماء والطعام وكل ما تملك من وسائل الحياة ، ثم غفلت عن الجمل فانطلق شارداً وسط الصحراء ، ولما تنبهت لم تجده ولم تعرف مكانه ، عند ذلك تيقنت أنك هالك لا محالة ، وفجأة وأنت فى هذه الحالة من الغم والكرب - خوفاً من المصير الذى ينتظرك - وجدت الجمل أمامك فكيف تكون فرحتك ؟ بلا شك تكون فرحة كبيرة جداً ؛ لأنك وجدت ما ينجيك من الهلاك ، فرحة هائلة عبر عنها الحديث الشريف ، حتى إن صاحب الراحلة أخطأ فى دعائه فقال : « اللهم أنت عبدى وأنا ربك » وذلك من شدة فرحه .

○○○

= إليه ذراعًا ، ومن تقرب إلى ذراعًا تقربت إليه باعًا ، وإذا أقبل إلى يمشى أقبلت إليه أهرول » .

وقال شيخ الإسلام بن تيمية : وهذا الحديث متواتر عن النبى ﷺ رواه ابن مسعود ، والبراء بن عازب ، والنعمان بن بشير ، وأبو هريرة ، وأنس بن مالك رضى الله تعالى عنهم .

أنواع التــوبة

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : التوبة نوعان : واجبة ومستحبة :

فالواجبة : هى التوبة من ترك مأمور أو فعل محظور . وهذه واجبة على جميع المكلفين ، كما أمرهم الله بذلك فى كتابه وعلى ألسنة رسله .

والمستحبة : هى التوبة من ترك المستحبات وفعل المكروهات . فمن اقتصر على التوبة الأولى كان من الأبرار المقتصدين ، ومن تاب التوبتين كان من السابقين المقربين . ومن لم يأت بالأولى كان من الظالمين : إما الكافرين وإما الفاسقين .

والتوبة : رجوع عما تاب منه إلى ما تاب إليه .

فالتوبة المشروعة هى الرجوع إلى الله ، وإلى فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه . وليست التوبة من فعل السيئات فقط كما ظن كثير من الجهال ، لا يتصورون التوبة إلا عما يفعله العبد من القبائح كالفواحش والمظالم ، بل التوبة من ترك الحسنات المأمور بها أهم من التوبة من فعل السيئات المنهى عنها ، =

= فأكثر الخلق يتركون كثيرًا مما أمرهم اللّٰه به من أقوال القلوب وأعمالها وأقوال البدن وأعماله ، وقد لا يعلمون أن ذلك مما أمروا به ، أو يعلمون الحق ولا يتبعونه ، فيكونون إما ضالين بعدم العلم النافع ، وإما مغضوبًا عليهم بمعاندة الحق بعد معرفته .

التوبة لابن تيمية [ص : ١٣، ١٤] .

ooo

وشرائط التوبة ثلاثة : الندم ، والإقلاع ، والاعتذار .

فحقيقة التوبة : هى الندم على ما سلف منه فى الماضى ، والإقلاع عنه فى الحال ، والعزم على ألا يعاوده فى المستقبل . والثلاثة تجتمع فى الوقت الذى تقع فيه التوبة ، فإنه فى ذلك الوقت يندم ، ويقلع ، ويعزم .

فحينئذ يرجع إلى العبودية التى خلق لها . وهذا الرجوع هو حقيقة التوبة . ولما كان متوقفًا على تلك الثلاثة جعلت شرائط له .

فأما الندم : فإنه لا تتحقق التوبة إلا به ؛ إذ من لم يندم على القبيح فذلك دليل على رضاه به ، وإصراره عليه ، وفى المسند « الندم توبة » [(١)] .

وأما الإقلاع : فتستحيل التوبة مع مباشرة الذنب .

وأما الاعتذار : ففيه إشكال ، فإن من الناس من يقول : من

(١) رواه أحمد فى المسند [١/٣٧٦، ٤٢٢، ٤٢٣، ٤٣٣] عن ابن مسعود رضى اللّٰه تعالى عنه وقال الأرناؤوط : صحيح .

تمام التوبة ترك الاعتذار ؛ فإن الاعتذار مُحاجَّة عن الجناية ، وترك الاعتذار اعتراف بها ، ولا تصح التوبة إلا بعد الاعتراف .

وفى ذلك يقول بعض الشعراء لرئيسه ، وقد عتب عليه فى شىء :

وما قابلتُ عُتْبَكَ باعتـــذار　　ولكنّى أقولُ كما تقـــولُ
وأطرقُ بابَ عَفْوِكَ بانكسار　　ويحكمُ بيننا الخُلُق الجميـلُ

فلما سمع الرئيس مقالته قام وركب إليه من فوره وأزال عتبه عليه .

فتمام الاعتراف : ترك الاعتذار ، بأن يكون فى قلبه ولسانه : اللَّهُمَّ لا براءة لى من ذنب فأعتذر ، ولا قوة لى فأنتصر ، ولكنى مذنب مستغفر ، اللَّهُمَّ لا عذر لى ، وإنما هو محض حقك ، ومحض جنايتى ، فإن عفوت وإلا فالحق لك .

والذى ظهر لى من كلام صاحب المنازل : أنه أراد بالاعتذار إظهار الضعف والمسكنة ، وغلبة العدو ، وقوة سلطان النفس ، وأنه لم يكن منى ما كان عن استهانة بحقك ، ولا جهلًا به ، ولا إنكارًا لاطلاعك ، ولا استهانة بوعيدك ، وإنما كان من

غلبة الهوى ، وضعف القوة عن مقاومة مرض الشهوة ، وطمعًا فى مغفرتك واتكالًا على عفوك ، وحُسْنِ ظَنٍّ بك ، ورجاء لكرمك ، وطمعًا فى سعة حلمك ورحمته ، وغرنى بك الغرور ، والنفس الأمارة بالسوء ، وسترك المرخى علىَّ ، وأعاننى جهلى ، ولا سبيل إلى الاعتصام لى إلا بك ، ولا معونة على طاعتك إلا بتوفيقك ، ونحو هذا من الكلام المتضمن للاستعطاف والتذلل والافتقار ، والاعتراف بالعجز ، والإقرار بالعبودية . فهذا من تمام التوبة ، وإنما يسلكه الأكياس المتملقون لربهم عز وجل ، والله يحب من عبده أن يتملق له .

وفى الحديث : « تملقوا لله »[1] ، وفى الصحيح : « لا أحد أحب إليه العذر من الله » وإن كان معنى ذلك الإعذار ؛ كما قال فى آخر الحديث : « من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين »[2]، وقال تعالى : ﴿ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝ ﴾

(١) لم أجده فيما تحت أيدينا من مراجع .

(٢) أخرجه مسلم [١٤٩٩/١٧] عن سعد بن عبادة رضى الله عنه .

﴿ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝ ﴾ [المرسلات] . فإنه من تمام عدله وإحسانه : أن أعذر إلى عباده ، وألا يؤاخذ ظالمهم إلا بعد كمال الإعذار وإقامة الحجة عليه ، فهو أيضًا يحب من عبده أن يعتذر إليه ، ويتنصل إليه من ذنبه ، وفى الحديث : « من اعتذر إلى الله قبل الله عذره »[1] . فهذا هو الاعتذار المحمود النافع .

أما الاعتذار بالقدر : فهو مخاصمة لله ، واحتجاج من العبد على الرب ، وحمل لذنبه على الأقدار ، وهذا فعل خصماء الله ، كما قال بعض شيوخهم فى قوله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ﴾ [آل عمران : ١٤] .

قال : أتدرون ما المراد بهذه الآية ؟

قالوا : ما المراد بها ؟

قال : إقامة أعذار الخليقة .

(١) رواه أبو يعلى [٤٣٣٨/٣٠٢/٧] عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه .

وكذب هذا الجاهل بالله وكلامه ، وإنما المراد بها : التزهيد فى هذا الفانى الذاهب ، والترغيب فى الباقى الدائم ، والإزراء بمن آثر هذا المزين واتبعه ، بمنزلة الصبى الذى يُزَيَّن له ما يلعب به فيهش إليه ويتحرك له ، مع أنه لم يذكر فاعل التزيين ، فلم يقل : « زينا للناس » والله تعالى يُضيف تزيين الدنيا والمعاصى إلى الشياطين ، كما قال تعالى : ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام : ٤٣] ، وقال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ ﴾ . [الأنعام : ١٣٧] .

وفى الحديث : « بعثت هاديًا وداعيًا ، وليس إلىَّ من الهداية شىء ، وبعث إبليس مغويًا ومزينًا ، وليس إليه من الضلالة شىء » ، ولا يناقض هذا قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ [الأنعام : ١٠٨] . فإن إضافة التزيين إليه قضاءً وقدرًا ، وإلى الشيطان تسببًا ، مع أن تزيينه تعالى عقوبة لهم

على ركونهم إلى ما زينه الشيطان لهم . فمن عقوبة السيئة : السيئة بعدها ، ومن ثواب الحسنة : الحسنة بعدها .

والمقصود : أن الاحتجاج بالقدر منافٍ للتوبة . وليس هو من الاعتذار فى شىء ، وفى بعض الآثار : « إن العبد إذا أذنب ، فقال : يا رب ، هذا قضاؤك ، وأنت قدرت علىَّ ، وأنت حكمت علىَّ ، وأنت كتبت علىَّ . يقول الله عز وجل : وأنت علمت ، وأنت كسبت ، وأنت أردت واجتهدت ، وأنا أعاقبك عليه .

وإذا قال : يا رب ، أنا أخطأت ، وأنا اعتديت ، وأنا فعلت ، يقول الله عز وجل : وأنا قدرت عليك وقضيت وكتبت ، وأنا أغفر لك .

وإذا عمل حسنة ، فقال : يا رب أنا عملتها ، وأنا تصدقت ، وأنا صليت ، وأنا أطعمت ، يقول الله عز وجل : وأنا أعنتك . وأنا وفقتك .

وإذا قال : يا رب أنت أعنتنى ووفقتنى ، وأنت مننت علىَّ .

يقول الله تعالى : وأنت عملتها ، وأنت أردتها ، وأنت كسبتها » .

فالاعتذار اعتذاران : اعتذار ينافى الاعتراف . فذلك منافٍ للتوبة .

واعتذار يقرر الاعتراف ، فذلك من تمام التوبة .

مدارج السالكين [١/٢٠٢:٢٠٥] .

○○○

قال صاحب المنازل : وحقائق التوبة ثلاثة أشياء :

تعظيم الجناية .

واتهام التوبة .

وطلب أعذار الخليقة .

يريد بالحقائق : ما يتحقق به الشيء ، وتتبين به صحته وثبوته ، كما قال النبي ﷺ لحارثة : « إن لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ »[1] .

(١) روى ابن أبي شيبة في المصنف كتاب [٢٧] الإيمان والرؤيا ، باب [٥] حديث رقم [٧٤] عن زبيد قال ، قال رسول الله ﷺ : « كيف أصبحت يا حارث بن مالك ؟ قال : أصبحت مؤمنًا حقًّا ، قال : إن لكل قول حقيقة فما حقيقة ذلك ؟ قال : أصبحت عزفت نفسي عن الدنيا ، وأسهرت ليلي وأظمأت نهاري ، وكأني أنظر إلى عرش ربي قد أبرز للحساب ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون في الجنة ، =

فأما تعظيم الجناية : فإنه إذا استهان بها لم يندم عليها . وعلى قدر تعظيمها يكون ندمه على ارتكابها . فإن من استهان بإضاعة فلس – مثلًا – لم يندم على إضاعته ، فإذا علم أنه دينار اشتد ندمه وعظمت إضاعته عنده .

وتعظيم الجناية يصدر عن ثلاثة أشياء :

تعظيم الأمر ، وتعظيم الآمر ، والتصديق بالجزاء .

وأما اتهام التوبة : فلأنها حق عليه ، لا يتيقن أنه أدى هذا الحق على الوجه المطلوب منه ، الذي ينبغي له أن يؤديه عليه ، فيخاف أنه ما وفاها حقها ، وأنها لم تقبل منه ، وأنه لم يبذل جهده في صحتها ، وأنها توبة عِلَّةٍ وهو لا يشعر بها ، كَتَوْبَةِ أرباب الحوائج والإفلاس ، والمحافظين على حاجاتهم ومنازلهم

= وكأني أسمع عواء أهل النار ؛ قال : فقال له : عبد نور الإيمان في قلبه ، إن عرفت فالزم » .

وانظره في ترجمة حارثة بن سراقة في أُسد الغابة لابن الأثير [٦٥٠/١/٩٩٣] ، والإصابة لابن حجر العسقلاني [٥٩٧/١/١٤٨٠] .

بين الناس ، أو أنه تاب محافظة على حاله فتاب للحال ، لا خوفًا من ذى الجلال ، أو أنه تاب طلبًا للراحة من الكد فى تحصيل الذنب ، أو اتقاء ما يخافه على عرضه وماله ومنصبه ، أو لضعف داعى المعصية فى قلبه ، وخمود نار شهوته ، أو لمنافاة المعصية لما يطلبه من العلم والرزق ، ونحو ذلك من العلل التى تقدح فى كون التوبة خوفًا من الله ، وتعظيمًا له ولحرماته ، وإجلالًا له ، وخشية من سقوط المنزلة عنده ، وعن البعد والطرد عنه ، والحجاب عن رؤية وجهه فى الدار الآخرة ، فهذه التوبة لون ، وتوبة أصحاب العلل لون .

ومن اتهام التوبة أيضًا : ضعف العزيمة ، والتفات القلب إلى الذنب الفينة بعد الفينة ، وتذكر حلاوة مواقعته ، فربما تنفس ، وربما هاج هائجه .

ومن اتهام التوبة : طمأنينته ووثوقه من نفسه بأنه قد تاب ، حتى كأنه قد أعطى منشورًا بالأمان ، فهذا من علامات التهمة .

ومن علاماتها : جمود العين ، واستمرار الغفلة ، وألا يستحدث بعد التوبة أعمالًا صالحة لم تكن له قبل الخطيئة .

مدارج السالكين [١/٢٠٥:٢٠٦] .

التوبة المقبولة الصحيحة لها علامات :

منها : أن يكون بعد التوبة خيرًا مما كان قبلها .

ومنها : أنه لا يزال الخوف مصاحبًا له لا يأمن مكر الله طرفة عين . فخوفه مستمر إلى أن يسمع قول الرسل لقبض روحه : ﴿ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت : ٣٠] ، فهناك يزول الخوف .

ومنها : انخلاع قلبه ، وتقطعه ندمًا وخوفًا . وهذا على قدر عظم الجناية وصغرها ، وهذا تأويل ابن عيينة لقوله تعالى : ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ [التوبة : ١١٠] . قال : تقطعها بالتوبة .

ولا ريب أن الخوف الشديد من العقوبة العظيمة يوجب انصداع القلب وانخلاعه ، وهذا هو تقطعه ، وهذه حقيقة التوبة ؛ لأنه يتقطع قلبه حسرة على ما فرط منه ، وخوفًا من

سوء عاقبته ، فمن لم يتقطع قلبه فى الدنيا على ما فرط حسرة وخوفًا ، تقطع فى الآخرة إذا حقَّت الحقائق ، وعاين ثواب المطيعين ، وعقاب العاصين ، فلابد من تقطع القلب إما فى الدنيا وإما فى الآخرة .

ومن موجبات التوبة الصحيحة أيضًا كسرة خاصة تحصل للقلب لا يشبهها شيء ، ولا تكون لغير المذنب ، لا تحصل بجوع ، ولا رياضة ، ولا حب مجرد ، وإنما هى أمر وراء هذا كله ، تكسر القلب بين يدى الرب كسرة تامة ، قد أحاطت به من جميع جهاته ، وألقته بين يدى ربه طريحًا ذليلًا خاشعًا . كحال عبد جان آبق من سيده ، فأخذ فأحضر بين يديه ، ولم يجد من ينجيه من سطوته ، ولم يجد منه بدأً ، ولا عنه غناء ، ولا منه مهربًا ، وعلم أن حياته وسعادته وفلاحه ونجاحه فى رضاه عنه وقد علم إحاطة سيده بتفاصيل جناياته ، هذا مع حبه لسيده ، وشدة حاجته إليه ، وعلمه بضعفه وعجزه ، وقوة سيده ، وذله ، وعز سيده .

فيجتمع من هذه الأحوال كسرة وذلة وخضوع ، ما أنفعها للعبد ! وما أجدى عائدتها عليه ! وما أعظم جَبْره بها . وما أقربه بها من سيده !

فليس شيء أحب إلى سيده من هذه الكسرة ، والخضوع والتذلل ، والإخبات ، والانطراح بين يديه ، والاستسلام له . فللَّه ما أحلى قوله فى هذه الحال : « أسألك بعزك وذلى إلا رحمتنى ، أسألك بقوتك وضعفى ، وبغناك عنى وفقرى إليك ، هذه ناصيتى الكاذبة الخاطئة بين يديك ، عبيدك سواى كثير ، وليس لى سيد سواك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك . أسألك مسألة المسكين وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل . وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، سؤال من خضعت لك رقبته ، ورغم لك أنفه ، وفاضت لك عيناه ، وذلَّ لك قلبه » .

يا من ألوذ به فيما أؤمله ... ومن أعوذ به مما أحاذره
لا يجبر الناس عظمًا أنت كاسره ... ولا يهيضون عظمًا أنت جابره

فهذا وأمثاله من آثار التوبة المقبولة ، فمن لم يجد ذلك فى قلبه فليتهم توبته ، وليرجع إلى تصحيحها .

فما أصعب التوبة الصحيحة بالحقيقة ، وما أسهلها باللسان والدعوى ! وما عالج الصادق بشيء أشق عليه من التوبة الخالصة الصادقة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وأكثر الناس من المتنزهين عن الكبائر الحسية والقاذورات : في كبائر مثلها أو أعظم منها أو دونها ، ولا يخطر بقلوبهم أنها ذنوب ليتوبوا منها ، فعندهم - من الإزراء على أهل الكبائر واحتقارهم ، وصولة طاعاتهم ، ومنتهم على الخلق بلسان الحال ، واقتضاء بواطنهم لتعظيم الخلق لهم على طاعاتهم ، اقتضاء لا يخفى على أحد غيرهم ، وتوابع ذلك - ما هو أبغض إلى الله ، وأبعد لهم عن بابه من كبائر أولئك .

فإن تدارك الله أحدهم بقاذورة أو كبيرة يوقعه فيها ؛ ليكسر بها نفسه ، ويعرفه قدره ، ويذله بها ، ويخرج بها صولة الطاعة من قلبه ، فهي رحمة في حقه ، كما أنه إذا تدارك أصحاب الكبائر بتوبة نصوح ، وإقبال بقلوبهم إليه ، فهو رحمة في حقهم ، وإلا فكلاهما على خطر . مدارج السالكين [١/٢٠٦:٢٠٨] .

يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [التوبة : ٧٤] إذن .. فجزاء من يعرض عن التوبة ويرفض أن يعترف بخطئه ، عذاب أليم ليس في الآخرة فقط ، ولكن في الدنيا والآخرة .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ يتوهمه بعض الناس من ذوى العقول السقيمة بأن العذاب في الدنيا فقط ؛ ولكن هناك أرض في الدنيا وأرض في الآخرة هي أرض الميعاد مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ [إبراهيم : ٤٨] .

إذن .. فكلمة الأرض تعطينا صورتين : صورة في الدنيا وصورة الآخرة ، ولذلك فالعذاب في الدنيا على هذه الأرض ، وفي الآخرة على أرض الحشر والحساب ، ثم النار موعدهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ الولي : هو القريب منك الذى تفزع إليه عند الشدائد ،

ولا تفزع عند الشدائد إلا لمن تطمع أن ينصرك ، أو لمن هو أقوى منك ، أما النصير : فهو من تطلب منه النصرة ، وقد يكون من البعيدين عنك ولا تربطك به ولاية .

إذن ، فلا الولىّ القريب منك ، ولا القريب الذى قد تفزع إليه لينصرك يستطيعان أن يفعلا شيئاً ، وذلك لتعلم أنه لا نجاة من عذاب الله إلا بالإنابة إليه ، ولا ملجأ ولا منجا منه إلا إليه سبحانه وتعالى (1) .

○○○

(1) أخرج البخارى [٦٣١١] ومسلم [٢٧١٠/٥٦] عن البراء بن عازب رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ، ثم اضطجع على شقك الأيمن وقل : « اللهم أسلمت نفسى إليك ، وفوضت أمرى إليك ، وألجأت ظهرى إليك ، رغبة ورهبة إليك ؛ لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذى أنزلت ، وبنبيك الذى أرسلت ، فإن مت ؛ مت على الفطرة ، فاجعلهن آخر ما تقول » .

قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (1) . [البقرة : ١٥٣] .

(1) إن الله عز وجل يرشدنا لكيفية التعامل مع مشاكل الحياة ونوائبها ، فيقول جل ثناؤه بخصوص التجهيز للحرب : ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال : ٦٠] . ويقول عز وجل لنبيه موسى عليه السلام فى مواجهة بعض الأمور التى تحتاج إلى عون من الآخرين : ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ [القصص : ٣٥] . ويقول عز وجل للمسلمين قاطبة : ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة : ٢] . وهكذا فى أمور كثيرة إلا أن القاعدة الأساسية لمواجهة كل هذه الأمور وغيرها هى : « الاستعانة بالصبر والصلاة » والتى يبنى عليها بقية الأسباب ؛ والتى نستمد منها توفيق الله لنا للسبب المؤدى إلى جنته ، وتنزل السكينة علينا بإذن الله .. ولذلك كان رسول الله ﷺ إذا واجهته مشكلة أو أهمه أمر قام فصلّى مستعيناً بها ، وبالصبر كما أمر الله عز وجل وأرشد .

وفى الحديث عن حذيفة رضى الله تعالى عنه قال : =

= « كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى »[1] .
وعن صهيب الرومي رضى الله تعالى عنه عن النبى ﷺ :
« .. كانوا – يعنى الأنبياء – يفزعون إذا فزعوا إلى الصلاة .. »[2] .
وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنه : نعى إليه أخوه قُثَم وهو فى مسير ، فاسترجع ثم تنحى عن الطريق فصلى ركعتين أطال فيهما الجلوس ، ثم قام يمشى إلى راحلته وهو يقول : ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴾ [البقرة : ٤٥] .
وروى الطبرى بسنده عن أبى العالية فى قوله : ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ يقول : استعينوا بالصبر والصلاة على مرضاة الله ، واعلموا أنهما من طاعة الله .
وعن الربيع قوله : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ ، اعلموا أنهما عونٌ على طاعة الله . =

(١) رواه أبو داود [١٣١٩] ، وأحمد فى المسند [٥ / ٣٨٨] ، وحسَّنه الألبانى فى صحيح أبى داود [١١٧١] .
(٢) رواه أحمد فى المسند [٤ / ٣٣٣] بسند صحيح .
(٣) رواه سعيد بن منصور فى سننه [٦٣٢/٢] بسند صحيح ، وابن جرير الطبرى فى تفسيره [١٤/٢ رقم ٨٥٢] .

= **وأما قوله** : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ ، **فإن تأويله** : فإن الله ناصرهُ وظَهيرهُ وراضٍ بفعله ، كقول القائل : « افعل يَا فلان كذا وأنا معك » ، يعنى : إنى نَاصرك على فعلك ذلك ومُعينك عليه .
وقال الطبرى : وهذه الآية حضٌّ من الله تعالى ذكره على طاعته ، واحتمال مكروهها على الأبدان والأموال ، فقال : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ على القيام بطاعتى ، وأداء فرائضى فى ناسخ أحكامى ، والانصراف عما أنسخه منها إلى الذى أحدِثه لكم من فرائضى ، وأنقلكم إليه من أحكامى ، والتسليم لأمرى فيما آمركم به فى حين إلزامكم حكمه ، والتحول عنه بعد تحويلى إياكم عنه – وإن لحقكم فى ذلك مكروهٌ من مقالة أعدائكم من الكفار بقذفهم لكم الباطل ، أو مشقةٌ من مقالة أعدائكم من الكفار بقذفهم لكم الباطل ، أو مشقةٌ على أبدانكم فى قيامكم به ، أو نقصٌ فى أموالكم – وعلى جهاد أعدائكم وحربهم فى سبيلى ، بالصبر منكم لى على مكروه ذلك ومَشقته عليكم ، واحتمال عنائه وثقله ، ثم بالفزع منكم فيما يَنوبكم من مفظِعات الأمور إلى الصلاة لى . فإنكم بالصبر على المكاره تُدركون مرضاتى ، =

= وبالصلاة لى تستنجحون طلباتكم قبلى ، وتدركون حاجاتكم عندى ، فإنى مع الصابرين على القيام بأداء فرائضى وترك معاصىَّ ، أنصرُهم وأرعاهم وأكلَؤُهم ؛ حتى يظفروا بما طلبوا وأمَّلوا قِبَلى . تفسير الطبرى [٢١٣/٣ ، ٢١٤] .

وقال القاسمى فى قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ : أرشد تعالى المؤمنين ، إثر الأمر بالشكر فى الآية قبل ، بالاستعانة بالصبر والصلاة ؛ لأن العبد إما أن يكون فى نعمة فيشكر عليها ، أو فى نقمة فيصبر عليها . كما جاء فى الحديث(١) : « عجباً للمؤمن ، لا يقضى له قضاء إلا كان خيراً له . إن أصابته سرَّاء فشكر كان خيراً له ، وإن =

(١) أخرجه مسلم [٦٤/٢٩٩٩] عن صهيب رضى الله تعالى عنه بلفظ : « عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن . إن أصابته سرَّاء شكر ، فكان خيراً له ، وإن أصابته ضرَّاء صبر ، فكان خيراً له » .

وروى أحمد فى المسند [٢٤/٥] عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « عجباً للمؤمن ، لا يقضى الله له شيئًا إلا كان خيراً له » .

= أصابته ضرَّاء فصبر كان خيراً له » . وبَين تعالى أن أجود ما يستعان به على تحمل المصائب فى سبيل الله ، الصبر والصلاة كما تقدم فى قوله : ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ .

وفى الحديث(١) : أن رسول الله ﷺ كان إذا حَزَبَهُ أمر صلّى . ثم إن الصبر صبران : صبر على ترك المحارم والمآثم ، وصبر على فعل الطاعات والقربات . والثانى أكثر ثوابا ؛ لأنه المقصود . وأما الصبر الثالث ، وهو الصبر على المصائب والنوائب ، فذاك أيضاً واجب . كالاستغفار من المعائب .

وقال الإمام ابن تيمية فى كتابه « السياسة الشرعية » : وأعظم عون لولىّ الأمر خاصة ، ولغيره عامة ثلاثة أمور :

أحدها : الإخلاص لله ، والتوكل عليه بالدعاء وغيره . وأصل ذلك المحافظة على الصلاة بالقلب والبدن . =

(١) تقدم ، رواه أحمد فى المسند [٣٣٨/٥] ، وأبو داود [١٣١٩] ، وحسنه الألبانى فى صحيح أبى داود [٧١٧١] عن حذيفة بن اليمان رضى الله تعالى عنه .

= **والثانى** : الإحسان إلى الخلق بالنفع والمال الذى هو الزكاة .
والثالث : الصبر على الأذى من الخلق وغيره من النوائب .

ولهذا يجمع الله بين الصلاة والصبر كثيراً كقوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ .

وكقوله تعالى : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [هود] .

وقوله : ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ [طه : ١٣٠] .

وأما قِرانُهُ بين الصلاة والزكاة فى القرآن فكثير جداً .

فبالقيام بالصلاة والزكاة والصبر يصلح حال الراعى والرعية إذا عرف الإنسان ما يدخل فى هذه الأسماء الجامعة . يدخل فى الصلاة من ذكر الله تعالى ودعائه وتلاوة كتابه وإخلاص الدين له والتوكل عليه ، وفى الزكاة الإحسان إلى الخلق بالمال والنفع : من نصر المظلوم وإعانة الملهوف وقضاء حاجة المحتاج . وفى الصبر احتمال الأذى وكظم الغيظ والعفو عن =

= الناس ومخالفة الهوى وترك الشر والبطر .

ما قوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ قال الإمام ابن تيمية فى « شرح حديث النزول » : لفظ المعية فى كتاب الله جاء عاماً كما فى قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد : ٤] .

وفى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ [المجادلة : ٧] ، إلى قوله : ﴿ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ﴾ .

وجاء خاصًا كما فى قوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل : ١٢٨] .

وقوله : ﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه : ٤٦] .

وقوله : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة : ٤٠] . فلو كان المراد بذاته مع كل شىء ، لكان التعميم يناقض التخصيص . فإنه قد علم أن قوله : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ أراد به تخصيص نفسه وأبا بكر دون عدوّهم من الكفار ، وكذلك قوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ خصهم بذلك دون الظالمين والفجار . وأيضًا ، فلفظ المعية ليست فى لغة العرب =

= ولا في شيء من القرآن أن يراد بها اختلاط إحدى الذاتين بالأخرى. كما في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ [الفتح : ٢٩] ، وقوله تعالى : ﴿ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النساء : ١٤٦] وقوله تعالى : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة : ١١٩] ، وقوله تعالى : ﴿ وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ ﴾ [الأنفال : ٧٥] . ومثل هذا كثير . فامتنع أن يكون قوله : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾ يدل على أن تكون ذاته مختلطة بذوات الخلق .. وقد بسط الكلام عليه في موضع آخر وبيّن أن لفظ المعية في اللغة ، وإن اقتضى المجامعة والمصاحبة والمقارنة ، فهو إذا كان مع العباد ، لم يناف ذلك علوّه على عرشه ، ويكون حكم معيته في كل موطن بحسبه . فمع الخلق كلهم بالعلم والقدرة والسلطان ، ويخص بعضهم بالإعانة والنصرة والتأييد .

محاسن التأويل [٣١٦/٢ - ٣٤٩] .

وقال العلامة السعدي رحمة الله تعالى عليه : أمر الله تعالى المؤمنين بالاستعانة على أمورهم الدنيوية ﴿ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ . فالصبر هو حبس النفس وكفها عما تكره ، فهو ثلاثة أقسام : =

= **الأول** : صبرها على طاعة الله ، حتى تؤديها .

الثاني : وعن معصية الله حتى تتركها .

الثالث : وعلى أقدار الله المؤلمة فلا تتسخطها .

فالصبر هو المعونة العظيمة على كل أمر ، فلا سبيل لغير الصابر ، أن يدرك مطلوبه وخصوصًا الطاعات الشاقة المستمرة ، فإنها مفتقرة أشد الافتقار إلى تحمل الصبر ، وتجرع المرارة الشاقة فإذا لازم صاحبها الصبر ، فاز بالنجاح ، وإن رده المكروه والمشقة عن الصبر والملازمة عليها ، لم يدرك شيئاً ، وحصل على الحرمان ، وكذلك المعصية التي تشتد دواعي النفس ونوازعها إليها وهي في محل قدرة العبد ، فهذه لا يمكن تركها إلا بصبر عظيم ، وكفٌّ لدواعي قلبه ونوازعها ، لله تعالى ، واستعانة بالله على العصمة منها ، فإنها من الفتن الكبار .

وكذلك البلاء الشاق ، خصوصًا إن استمر ، فهذا تضعف معه القوى النفسانية والجسدية ، ويوجد مقتضاها ، وهو التسخط ، إن لم يقاومها صاحبها بالصبر لله ، والتوكل عليه ، واللجأ إليه ، والافتقار على الدوام .

فعلمت أن الصبر محتاج إليه العبد ، بل مضطر إليه في كل =

= حالة من أحواله ، فلهذا أمر الله تعالى به ، وأخبر أنه : ﴿ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ أى : مع من كان الصبر لهم خلقًا وصفة ، وملكة - بمعونته وتوفيقه وتسديده - فهانت عليهم بذلك المشاق والمكاره ، وسهل عليهم كل عظيم ، وزالت عنهم كل صعوبة ، وهذه معية خاصة تقتضى محبته ومعونته ، ونصره وقربه ، وهذا منقبة عظيمة للصابرين . فلو لم يكن للصابرين فضيلة إلا أنهم فازوا بهذه المعية من الله ، لكفى بها فضلًا وشرفًا ، وأما المعية العامة فهى معية العلم والقدرة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ وهذه عامة للخلق .

وأمر تعالى بالاستعانة بالصلاة ؛ لأن الصلاة هى عماد الدين ، ونور المؤمنين ، وهى الصلة بين العبد وربه ، فإذا كانت صلاة العبد صلاة كاملة ، مجتمعًا فيها ما يلزم فيها ، وما يسن ، وحصل فيها حضور القلب الذى هو لبها ، فصار العبد إذا دخل فيها استشعر دخوله على ربه ، ووقوفه بين يديه ، موقف العبد الخادم المتأدب ، مستحضراً لكل ما يقوله وما يفعله ، مستغرقًا بمناجاة ربه ودعائه ، لا جرم أن هذه الصلاة من أكبر المعونة على جميع الأمور ، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ؛ ولأن هذا =

الله تبارك وتعالى يخاطب من آمن به ليتلقى عنه التكليف ، فالتكليف إنما يأتى بعد الإيمان ، إن الله يكلف فقط من آمن به ، لذلك فالحق لا يقول : يا أيها الناس افعلوا كذا . إن الحق يدعو الناس إلى الإيمان به أولاً ، ثم يخاطب المؤمنين بأن يطلب منهم أن يعملوا على مقتضى الإيمان ، وعندما يأمر الحق جل وعلا بالاستعانة بالصلاة بجانب الصبر ، فإننا نعلم أن الصلاة هى الركن الإسلامى الذى يعلن به المسلم الولاء الدائم لخالقه عز وجل .

وقلنا : إن الإنسان المخلوق لله عندما يقف كل يوم خمس مرات بين يدى الله ، فإنما يصلح من ذاته ويتطهر من ذنوبه (١) .

= الحضور الذى يكون فى الصلاة ، يوجب للعبد فى قلبه وصفا وداعياً يدعوه إلى امتثال أوامر ربه واجتناب نواهيه ، هذه هى الصلاة التى أمر الله أن يستعين بها على كل شىء .

تيسير الكريم الرحمن [١٠٩/١ - ١١١] .

(١) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات ، هل يبقى من درنه شىء ؟ » قالوا : لا يبقى من درنه شىء . قال : « فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا » . أخرجه البخارى [٥٢٨] ، ومسلم [٦٦٧/٢٣٨] واللفظ له .

إن الإنسان صنعة الله ، وعندما يذهب الإنسان إلى لقاء خالقه جل وعلا ؛ فإنه يصلح ما يصيبه من عطب ؛ وقد لا يدري الإنسان هذا اللون من العطب . وهكذا يُعد الخالق سبحانه خَلْقَهُ لمواجهة كل ألوان المتاعب فى الحياة بقوله سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ ؛ إن الحق يدعو المؤمنين إلى الحضور الدائم فى معيته ، معية النصر والتأييد والمدد . إن أحداث الحياة والمصائب فيها لا يمكن أن تتسلط على النفس إلا إذا انعزلت النفس عن مصدر قوتها ، وفي هذا الموضع يأتي أمر الحق بالتكليف الواضح ؛ بالصبر على إيذاء اليهود وأهل الكتاب والمشركين لمشاعر المسلمين ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (1)

(1) قال الإمام ابن القيم : قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى : الصبر فى القرآن فى نحو تسعين موضعاً وهو واجب بإجماع الأمة وهو نصف الإيمان . فإن الإيمان نصفان : نصف صبر ونصف شكر . وهو مذكور فى القرآن على ستة عشر نوعًا : =

= الأول : الأمر به . نحو قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [البقرة : ٤٥] . وقوله : ﴿ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] . وقوله : ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [النحل : ١٢٧] .

الثاني : النهي عن ضده كقوله : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ [الأحقاف : ٣٥] . وقوله : ﴿ فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾ [الأنفال : ١٥] . فإن تولية الأدبار : ترك للصبر والمصابرة . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ [محمد : ٣٣] . فإن إبطالها ترك الصبر على إتمامها . وقوله : ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ ﴾ [آل عمران : ١٣٩] فإن الوهن من عدم الصبر .

الثالث : الثناء على أهله كقوله تعالى : ﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٧] . وقوله : ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٧] وهو كثير فى القرآن .

الرابع : إيجابه سبحانه محبته لهم كقوله : ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٦] . =

= الخامس : إيجاب معيته لهم ، وهى معية خاصة ، تتضمن حفظهم ونصرهم وتأييدهم ، ليست معية عامة ، وهى معية العلم والإحاطة كقوله : ﴿ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٤٦] وقوله : ﴿ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٤٩] .

السادس : إخباره بأن الصبر خير لأصحابه ، كقوله : ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾ [النحل : ١٢٦] . وقوله : ﴿ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [النساء : ٢٥] .

السابع : إيجاب الجزاء لهم بأحسن أعمالهم . كقوله تعالى : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٩٦] .

الثامن : إيجابه سبحانه الجزاء لهم بغير حساب . كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر : ١٠] .

التاسع : إطلاق البشرى لأهل الصبر . كقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة : ١٥٥] .

العاشر : ضمان النصر والمدد لهم . كقوله تعالى : ﴿ بَلَىٰٓ

إن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [آل عمران : ١٢٥] ، ومنه قول النبى ﷺ : « واعلم أن النصر مع الصبر »[1] .

الحادى عشر : الإخبار منه تعالى بأن أهل الصبر هم أهل العزائم . كقوله تعالى : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الشورى : ٤٣] .

الثانى عشر : الإخبار أنه ما يُلَقَّى الأعمال الصالحة وجزاءها والحظوظ العظيمة إلَّا أهل الصبر كقوله تعالى : ﴿ ... وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ [القصص : ٨٠] . وقوله : ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت : ٣٥] .

الثالث عشر : الإخبار أنه إنما ينتفع بالآيات والعبر أهل الصبر . كقوله تعالى لموسى : ﴿ ... أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ

(١) جزء من حديث رواه أحمد فى المسند [٣٠٧/١] ، والحاكم فى المستدرك [٥٤١/٣] عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما بلفظ : « واعلم أن مع الصبر النصر » . وصححه الشيخ شاكر برقم [٢٨٠٤] .

مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [إبراهيم : ٥] وقوله في أهل سبأ : ﴿ ... فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [سبأ : ١٩] . وقوله في سورة الشورى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [الشورى : ٣٢، ٣٣] .

الرابع عشر : الإخبار بأن الفوز المطلوب المحبوب ، والنجاة من المكروب المرهوب ودخول الجنة إنما نالوه بالصبر كقوله تعالى : ﴿ .. وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد : ٢٣ ، ٢٤] .

الخامس عشر : أنه يورث صاحبه درجة الإمامة . سمعت شيخ الإسلام بن تيمية – قدس الله روحه – يقول : بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين . ثم تلا قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : ٢٤] .

السادس عشر : اقترانه بمقامات الإسلام والإيمان ، كما =

= قرنه الله سبحانه باليقين والإيمان وبالتقوى والتوكل ، وبالشكر والعمل الصالح والرحمة ؛ ولهذا كان الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، ولا إيمان لمن لا صبر له . كما أنه لا جسد لمن لا رأس له .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه : « خير عيش أدركناه بالصبر » [1] .

وأخبر النبي ﷺ في الحديث الصحيح : « أنه ضياء » [2] .

وقال : « من يتصبر يصبره الله » [3] . =

(١) أخرجه البخارى مُعَلَّقًا بصيغة الجزم . وقال الحافظ في الفتح : قد وصله أحمد في كتاب الزهد بسند صحيح عن مجاهد قال : قال عمر : « وجدنا خير عيشنا الصبر » . ورواه أبو نعيم في الحلية من طريق أحمد كذلك . ورواه عبد الله بن المبارك في كتاب الزهد من وجه آخر عن مجاهد به . فتح البارى [١١/ ٣٠٩] .

(٢) أخرجه مسلم [١١/٢٢٣] ، عن أبي مالك الأشعرى رضى الله عنه .

(٣) أخرجه مسلم [١٠٥٣/١٤٤] ؛ عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه .

= وفى الحديث الصحيح : « عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضرَّاء صبر فكان خيراً له »[1] .

وقال للمرأة السوداء التى كانت تصرع فسألته : أن يدعو لها : « إن شئت صبرت ، ولك الجنة وإن شئت دعوت الله [illegible] » فقالت إنى أتكشف فادع الله أن لا أتكشف . فدعا لها [2] .

وأمر الأنصار رضى الله تعالى عنهم بأن يصبروا على الأثرة التى يلقونها بعده حتى يلقوه على الحوض [3] .

وأمر عند ملاقاة العدو بالصبر ، وأمر بالصبر عند المعـ[illegible] . وأخبر : « أنه إنما يكون عند الصدمة الأولى »[4] . =

---

(١) أخرجه مسلم [٦٤/٢٩٩٩] ، عن صهيب الرومى رضى اللّه عنه .

(٢) أخرجه البخارى [٥٦٥٢] ، ومسلم [٥٤/٢٥٧٦] ، عن ابن عباس رضى اللّه تعالى عنهما .

(٣) أخرجه البخارى [٤٣٣٠] ، ومسلم [١٣٩/١٠٦١] ، عن عبد اللّه بن زيد رضى اللّه تعالى عنه .

(٤) أخرجه البخارى [١٢٨٣] ، ومسلم [١٤/٩٢٦] ، عن أنس بن مالك رضى اللّه تعالى عنه .

اللّه تبارك وتعالى يطلب من المؤمنين أن يستعينوا بالصبر والصلاة فى أى أمر فى حركة الحياة يفوق طاقة المؤمن وقدرته ؛ لأن أى أمر لو كان فى مقدور الإنسان لما طلب المعونة ، ولنا أن نسأل : متى يطلب الإنسان المعونة ؟

الإنسان يطلب المعونة عند عدم القدرة : إذن .. لابد أن تستوعب قدرة الإنسان الفعل فيستطيع إنجازه ، ولكن ماذا يفعل الإنسان حين يجىء فعل يفوق قدرته ؟ ساعتها يجب عليه أن يستعين بالقادر الذى لا تنفد قدرته أبدًا .

= وأمر ﷺ المصاب بأنفع الأمور له ، وهو الصبر والاحتساب ؛ فإن ذلك يخفف مصيبته ويوفر أجره . والجزع والتسخط والتشكى يزيد فى المصيبة ، ويذهب الأجر . وأخبر ﷺ أن الصبر خير كله : فقال : « ما أعطى أحد عطاء خيراً له وأوسع من الصبر »[1] . مدارج السالكين [٢ / ١٧٤ : ١٧٨] .

---

(١) أخرجه البخارى [١٤٦٩] ، ومسلم [١٢٤/١٠٥٣] ، عن أبى سعيد الخدرى رضى اللّه تعالى عنه .

إن هذه الآية يستطيع المؤمن أن يسير على هُداها فى كل حركة فى الحياة ، فيقبل على الأشياء مستعيناً بمن خلق الأشياء سبحانه ، ولا يستعين الإنسان بالخالق جل وعلا إلا إذا كان مؤمناً به .

وقول الله تعالى : ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ معنى ذلك : أن الحق ينبهنا إلى أن هناك أحداثاً ستأتى لتستنفد الطاقة البشرية وتعلو عليها وتتخطاها ، والصبر هنا يدل على أن هذه الأحداث فيها إيلام وفيها مشقة ، وكأن الحق يعد النفس المؤمنة لعملية جهادية كبيرة قد تستنفد طاقة الإنسان العادى ، لكن المؤمن يستطيع أن يتحمل مشقة الأحداث بالصبر على ما يلاقيه . إن الحق لا يُمَنِّى المؤمنين الذين اختاروا السير على الصراط المستقيم فى الحياة ، بأن طريق الإيمان طريق سهل خالٍ من المشاقّ . إن مهمة أهل الطريق المستقيم فى الحياة أنهم أصحاب حق ، وأصحاب الحق لا تستنفر هممهم إلا حين يستشرى الباطل ، والباطل حين يرى دنياه تتزلزل من تحت أقدامه فهو يحاول جاهدا أن يصدَّ جنود الحق .

إن الله يَعِدُ المؤمنين بأنهم سيواجهون عنفاً ويواجهون شراسة ويواجهون مكراً ويواجهون كيداً ، فإياكم أيها المؤمنون أن تخور منكم القوة وأنتم تؤدون المهمة ، هذه المهمة هى : إعلاء كلمة الله فى الأرض ؛ وإخراج الناس من عبادة الناس إلى عبادة الله الواحد القهار ، وهذا الأمر لن يتم بيسر وسهولة ، فلابد من المشقة وتحمل تبعات ذلك .

إن أعداء الإسلام سيتكالبون عليكم ، فكونوا أنتم أشد منهم قوة واستعينوا بالصبر . والصبر هو أن يتحمل الإنسان لونين من المشقة .

اللون الأول من المشقة هو : أن الطاعة قد تكون صعبة على النفس ، فعلى المؤمن أن يصبر عليها .

واللون الثانى من المشقة هو : أن الطاعة تتطلب أيضًا أن يكفَّ الإنسان عن شهوة تلح النفس عليها[1] ، وهذا أيضاً يتطلب صبراً .

---

(١) ولذلك فقد قَسَّم العلماء « الصبر » إلى أنواع ، وذلك بالنسبة لما يستقبله العبد من أمور فى حياته ، وإلى أنواع أخرى بالنسبة لعلاقة المسلم بربه ، وعرَّفوا الصبر لغة وشرعاً ، وها نحن =

= نذكر كلامهم على وجه من الاختصار غير المخل ، فأنواع الصبر لما يستقبله العبد من أمور في حياته هي :

١ - **الصبر في اللغة** : الحبس والكف ومنه قوله تعالى ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ [الكهف : ٢٨] أي : احبس نفسك معهم ، كما قال الإمام ابن القيم . مدارج السالكين [٢ / ١٧٨] .

٢ - **الصبر شرعاً** : حبس النفس على ما يقتضيه الشرع ، فهو حبس النفس عن الجزع والتسخط ، وحبس اللسان عن الشكوى ، وحبس الجوارح عن المعاصي والبعد عن الله نتيجة ظروف الحياة .

وقد قال الراغب : فالصبر لفظ عام ، وربما خولف بين أسمائه بحسب اختلاف مواقعه ، فإن كان حبس النفس لمصيبة سُمِّيَ صبراً لا غير ، ويضاده الجزع .

وإن كان في محاربة سُمِّيَ شجاعة ويضاده الجبن .

وإن كان في نائبة مضجرة سُمِّيَ رحب الصدر ، ويضاده الضجر .

وإن كان في إمساك الكلام سمي كتماناً ويضاده المذل ، وقد سمى الله تعالى كل ذلك صبراً . مفردات ألفاظ القرآن [ص ٤٧٤] . =

إذن .. فالطاعة تتطلب صبراً في حالة تنفيذ مطلوبها ، وتتطلب صبراً آخر في حالة الابتعاد عن المشقة ، إن الطاعة تتطلب الصبر على القيام بعمل قد يرى الإنسان أنه شاق ، وتنهى عن عمل قد يرى الإنسان أنه سهل وفيه لذة ، لذلك نجد الرسول ﷺ يقول في الحديث : « حُفَّتِ الجنَّةُ بالمكارِهِ ، وحُفَّتِ النّارُ بالشَّهَواتِ » (١) .

= **وللصبر أنواع أخرى منها** :

١ - **الصبر لله** « فلا يرائي فيه » لقول الله تعالى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة : ٥] .

٢ - **الصبر بالله** : قال تعالى : ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [النحل : ١٢٧] .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٢٦] .

٣ - **الصبر عن الله** : وهو حرام ، وذلك لمن ذاق حلاوة القرب من الله عز وجل ثم صبر على البعد عنه بعد ذلك .
مدارج السالكين [٢ / ١٧٨] وما بعدها .

(١) أخرجه البخاري [٦٤٨٧] عن أبي هريرة رضي الله عنه ، ومسلم [٢٨٢٢] عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه واللفظ له .

الطاعة إذن تتطلب لونين من الصبر ، الصبر على مشقة الطاعة لتفعلها ، والصبر على ترك المعصية لتتجنبها ، لكن إذا ما ظلت النفس مع الله تعالى باتباع أمره واجتناب نهيه فلن تقدر أحداث الحياة أن تتسلط بالهموم على النفس الإنسانية .

إن الإنسان المؤمن ما دام فى حصانة دينه فلا يقوى عليه حدث أبداً ، أما الإنسان المنعزل عن منهج الله فهو الذى تقوى عليه أحداث الحياة ؛ لأنه يواجهها بقدرته المحدودة ، وأما الإنسان المؤمن بمنهج الله فهو يعيش فى معية ربه القادر القدير ، فلا يتغلب عليه أحد أبدًا إلا إذا انعزل عن معيّة ربه أو خالف فى شىء من منهجه ، فإن أراد المؤمن أن يستديم نصر الله ، فليظل دائماً فى معية الله ، والحق يكون مع الصابرين ؛ حتى يعلموا أن الله تعالى يفرج عنهم .

إن أمر الحق للمسلمين بالصبر والصلاة ، هو تجديد استدامة الولاء له سبحانه عندما هاجروا من مكة إلى المدينة ، وكان اليهود فيها أصحاب شىء من العلم ؛ ولهم جزء من السيطرة على الاقتصاد ، لذلك جاء أمر الله بالاستعانة بالصلاة لتستمر

القيم التى هجرها اليهود ، وأمرهم الحق بالزكاة ؛ لأن الزكاة فى جوهرها إيجاد حركة من الإنسان ؛ لتسع حاجته وحاجة من يعول وتزيد ، وبذلك يستغنى المسلمون عن اليهود فلا يحتاجون إلى اقتصاد يسيطر عليه هؤلاء الذين لعنهم الله .

إن الأمر بالزكاة كان فى جوهره أمراً بزيادة الحركة فى الحياة ؛ ليواجه المسلمون أمور حياتهم بحزم ، ويصلحوا من هذه الأمور بمنهج الله :

إن الحق سبحانه وتعالى يعلم أن تبعات الإيمان ، ومواجهة المؤمنين لخصوم الإيمان مستطلب من المسلمين مشقة عنيفة ، فهى تهددهم فى ذواتهم وفى أهلهم وفى أموالهم ؛ لذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أن يعطى المؤمنين فى هذه البيئة مناعة ضد كل هذه الأشياء ، فأمرهم بالاستعانة بالصبر والصلاة ، فقال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [البقرة : ١٥٣] .

ooo

الصلاة .. وتكفير الذنوب

بعد أن قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود : ١١٤] وهكذا كشف الله تعالى وجهًا من حكمته سبحانه فى القيام بالصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل وهى أن الصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما ما اجتنبت الكبائر (١) ، ولكن ما هى الحسنة وما هى السيئة ؟ الحسنة هى ما رتب الله تعالى على عملها ثوابا ، والسيئة هى ما جعل الله سبحانه على عملها عقابا .

وأولى حسنات الإيمان أن نشهد أن لا إله إلا الله فَتُذْهِبُ حسنة الإيمان سيئةَ الكفر .

وقال بعض العلماء : إذا كان الإيمان حسنة أذهبت سيئة الكفر ؛ فيا من تقول : إن المؤمن الذى عمل الذنوب الكبائر سيخلد فى النار ، ما الفرق بين إنسانٍ عصى وهو مؤمنٌ

(١) أخرج مسلم [١٤/٢٣٣] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ، أن رسول ﷺ كان يقول : « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان مكفرات ما بينهن إذا اجتنبت الكبائر » .

وإنسانٍ عصَى وهو كافر ؟ وإذا كان الإيمان حسنة أذهب الله تعالى بها الكفر ، ألا يذهب بها سبحانه ما هو دون الكفر ؟ نقول : بلى ؛ إن الإيمان حسنة أذهب الله تعالى بها سيئة الكفر ، فالمؤمن العاصى مهما كانت معصيته لا يخلَّد فى النار ؛ لأنه ليس من العدل المساواة بين من آمن بالله تعالى ولكنه حدث عنده بعض التقصير فى أمور ، وبين من لم يؤمن بالله أصلاً .

إذن .. كلمة الإيمان قد صنعت حسنة كبيرة ، بأن أذهبت الكفر أولًا فمنعت خلود المؤمن فى النار ثانيًا ، ولذلك من عقيدة الفرقة الناجية التى جاءت فى أحاديث رسول الله ﷺ أن المؤمن العاصى لا يخلد فى النار ، وإن كان يدخلها بقدر ما ارتكب من المعاصى ، إذا لم تداركه رحمة الله تعالى بأن تكون حسناته أكثر فى ميزانه من سيئاته ، أو يشفع الله تعالى فيها ، أو تناله شفاعة النبى ﷺ ، أو يَشْفَعُ فيه أحد من المأذون لهم فى الشفاعة .

والحسنات هى الفرائض التى فرضها الله تعالى على عباده ، إذن .. فالحسنات التى هى الفرائض تذهب بالسيئات التى هى المعاصى ، وما يوجب عذاب الله . ولكن هناك أحاديث

وردت فى غير الفرائض ، منها مثلاً : صوم يوم عرفة يكفر السنة الماضية والباقية (1) ورسول الله ﷺ قال : إن الإنسان الذى يستقبل نعمة الله بقوله : الحمد لله الذى رزقنى بغير حول منى ولا قوة ، والحمد لله الذى كسانى من غير حول منى ولا قوة ، هذا الحمد يكفر الذنوب ، وإذا قلت : سبحان الله ، والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله تكفر الذنوب .

إذن .. فالحسنات تكون فرضًا وتكون غير فرض ، وكلها تحسب حسنات ؛ والسيئات هى عمل توعَّدَ اللهُ من يعمله بالعقوبة ، فكيف تُذهب الحسنات السيئات ما دامت السيئات عملًا ؟ وهل العمل إذا وقع يرفع ؟ كيف تُذهب الحسنة السيئة ؟

نقول : إن السيئة إذا وقعت لا ترفع ؛ لأن الذهاب إما أن يكون ذهاب فعل ، وهذا ليس متأتيا ، وإما أن يكون ذهاب أثر

---

(1) جزء من حديث رواه مسلم [1162/197] عن أبى قتادة الأنصارى رضى الله تعالى عنه .

ذلك الفعل ، وهذا هو الذى يحدث ، فالله سبحانه وتعالى يمحوه من كتاب سيئاتك .

إذن .. فإذهاب الفعل فى ذاته لا يحدث ؛ لأن الواقع لا يرفع وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود : 114] ليس معناه أنها تمنعها ؛ لأن السيئة وقعت فعلاً ، ولكن السيئة إذا وقعت فإن الذى يترتب عليها من عقاب هو الذى يرفع بموجب فعل الحسنات .

ooo

يروى أن رجلًا كان يسير فى الليل ، فرأى الجنود الذين يراقبون الطرقات ، فقال الرجل فى نفسه : قد يظلمنى الجند بسؤالى أين كنت ؟ وإلى أين أنت ذاهب ؟ لذلك سأجرى منهم وأختفى فى أى مكان ، وجرى الرجل واختبأ فى مكان خرب ، وداهم الجند ذلك المكان ووجدوا فيه قتيلاً ، وكانت كل الملابسات تشير إلى أن الرجل هو القاتل ، واقتاد الجند الرجل إلى الحاكم . فماذا كان من الرجل ؟ لقد طلب الرجل أن يتوضأ وأن يصلى ركعتين لله ، وأمهله الحاكم ، فصلى الرجل ودعا الله قائلاً : « اللهم إنك تعلم أنه لا شاهد لى على براءتى إلا أنت ، وأنت أمرتنا ألا نكتم الشهادة فأسألك ذلك فى نفسك » .

لقد كان الرجل يؤمن يقيناً بأن الله قد أمر المؤمنين ألا يكتموا الشهادة ؛ لذلك سأل الرجل ربه الحق أن يظهر براءته ، وعلى الفور دخل على الحاكم فجأة رجل وقال : أنا القاتل ،

فتعجب الحاكم ، وسأل الرجل الذى جاء ليقر أنه قاتل : لماذا تعترف على نفسك ولم يرك أحد ؟

قال القاتل : والله ما قررت ، إنما جاء هاتف فأجرى لسانى بما قلت .

القاتل يعترف أن هاتفاً قد جاء إليه فحرك خواطره فسار إلى الحاكم ليعترف أنه القاتل ، وهنا قام ولىّ المقتول وصاحب الحق فى الدية ، وكان هو ابن القتيل ليقول : « اللَّهُمَّ إنى أُشْهِدُكَ أننى أعفيت قاتل أبى من ديته » .

إن تلك الحكايةَ تحكى للدلالة على طلاقة قدرة الحق سبحانه . مظلوم برىء يصلى ركعتين للخالق كما علمنا رسول الله ﷺ فقد كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى [(1)] ، إن الإنسان عندما يقف بين يدى ربه ويناجيه فالحقُّ سبحانه هو القادر وحده على أن يعطى الإنسان مسألته لأننا جميعًا فى قبضته يفعل بنا ما يشاء وقت ما يشاء ، لا رادَّ لأمره ، ولا معقب

---

(١) رواه أبو داود [١٣١٩] عن حذيفة رضى الله تعالى عنه ، وحسنه الألبانى فى صحيح أبى داود [١١٧١] ، وأحمد فى المسند [٣٨٨/٥] .

حكمه ، فعلينا أن نَصْدُقَ فى التوجه إليه ، ونخلص النية فى الطلب ، ونكثر فى الوقوف بين يديه ، فالصلاة لها شأن عظيم ، فهى ركن الإسلام الوحيد الذى فرض بالأمر المباشر من الله تعالى لرسوله ﷺ فى ليلة الإسراء والمعراج (1) .

---

(1) انظر كتاب : شرح حديث الإسراء والمعراج للشيخ الإمام ، باب : الصلاة هدية القرب للقرب ، وهو من منشورات مكتبة التراث الإسلامى .

وقال الإمام القصرى : الصلاة هى أكبر شعب الإسلام بعد الشهادة لله وللرسول ، فأما كونها من شعب الإسلام فَبَيِّنٌ فى حديث جبريل وغيره من الأحاديث ؛ كيف وقد روى جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال : « العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر »(1) .

وصفتها وما تحتاج إليه من أمور كل ذلك مكتوب فى =

---

(1) رواه الترمذى [2621] ، وابن ماجه [1079] ، والبيهقى فى السنن الكبرى [366/3] ، وأحمد فى المسند [346/5] ، والحاكم فى المستدرك [7،6/1] ، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى [2113] .

= كتب الفقه ، وأقل ما يجزئ العبد فى فعلها ما رواه أبو هريرة رضى الله تعالى عنه وجماعة من الرواة : أن رسول الله ﷺ دخل المسجد ، فدخل رجل فصلى ، ثم جاء فَسَلم على رسول الله ﷺ فَرَدَّ رسول الله ﷺ عَليه السلام . قال : « ارجع فصل فإنك لم تصل » . فرجع الرجل فصلى كما كان صلى ، ثم جاء إلى النبى ﷺ فسلم عليه ، فقال رسول الله ﷺ : « وعليك السلام » ثم قال : « ارجع فصل فإنك لم تصل » حتى فعل ذلك ثلاث مرات . فقال الرجل : والذى بعثك بالحق ما أُحسن غير هذا ، علمنى . قال : « إذا قمت إلى الصلاة فكبر ، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ، ثم اركع حتى تطمئن راكعًا ، ثم ارفع حتى تعتدل قائمًا ، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدًا ، ثم ارفع حتى تطمئن جالسًا ، ثم افعل ذلك فى صلاتك كلها » (1) . =

---

(1) أخرجه البخارى [757] ، ومسلم [45/397] ، وأبو داود [856] ، والترمذى [303] ، والنسائى [124/2] وابن ماجه [1060] وأحمد فى المسند [437/2] .

= ومنها : فرائض كالصلوات الخمس ، وصلاة الجنائز ، وفى الآثار : أن اتباع الجنائز من الإيمان ، فهى شعبة من الإيمان - أعنى اتباع الجنائز - لأنها تذكر بالآخرة ، والوقوف بين يديه سبحانه والجزاء والثواب والعقاب ، لكنّا اختصرنا ذكرها ؛ لأنها من جملة الصلوات فلم نفرد لها بابًا .

ومنها : سنن كصلاة العيدين والاستسقاء والكسوف والوتر وركعتى الفجر .

ومنها : فضائل كسائر النوافل .

وتأدية الصلاة وإقامة ركوعها وسجودها وتلاوتها ظاهرًا إسلام ، فأما روح الصلاة وفهم معانيها فى مقام الإيمان ومقام الإحسان ، فإن أولها بعد التطهير والنظافة والدخول على الملك ، الانتهاض إلى موضع الصلاة ، وهى البقعة المقدسة من مسجد مبنى وغير مبنى ، فالمراد بالانتهاض والمشى : انتهاض القلب والباطن وسيره ودخوله إلى عالم الملكوت وخروجه عن عالم الدنيا ؛ حتى يدخل إلى متعبد الملائكة الذى وجب الإيمان بهم فى العالم المقدس ، الذى ليس فيه ما يشغل عن الصلاة . ثم القيام إلى الصلاة ، والمراد : قيام القلب إلى أعلى عليين =

= بين يدى الله تعالى .

ثم إحضار النية ، والمراد بها : التقرب إلى الله بالصلاة ، وإخراج ما فى القلب سوى من أقبل عليه ، وذلك إشراف على من توجه إليه وغيبه من غيره ، فإذا أشرف على المطلوب برفع الحجب الشاغلة عن القلب وقع له تعظيم المتجلى له ، وخالطته حرمته واحترامه ، فحينئذ يحرم بتكبيرة الإحرام ؛ لأنه فى موضع الاحترام والحرمة ، فيحرم عليه النظر إلى غيره والاشتغال بسواه فيقول : « الله أكبر » من أن يقبل على غيره أو يلتفت له من أجل ما عرف من جلالة القدر وعظيم الخطر ، أخذ فى الثناء على الله بالفاتحة فيقول : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ الذى هو على ما هو عليه ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أى : سيد العالمين فتتجلى له صفة السيادة لله التى استعبد بها العالمين على كثرتهم ، ويثنى عليه بصفاته ، ويناجيه بكلامه ، فيفهم من كلامه ومحادثته مع الله بفاتحة الكتاب والسورة ما يوجب له الخضوع بين يديه ، فيركع لزيادة التعظيم بشهادة أوصاف المتكلم معه ، فيقول : « الله أكبر » منحطاً للركوع أى : أكبر مما وقع فى نفسى من تعظيمه . =

= والمراد من ركوع الجسد : خضوع النفس والروح فى مقام الإيمان والإحسان بين يدى كبرياء الجليل العظيم .

ولذلك أُمر أن يقول فى ركوعه : « سبحان ربى العظيم » لما شاهد من معنى التعظيم الذى خضع له فيرفعه الله تعالى بكرمه إلى حالته الأولى التى هرب منها إلى الركوع ؛ لأن من تواضع لله ، أى : لأجل عظمة الله ، رفعه الله إليه ، فإذا رفعه إليه شاهد العبد نعمة الله عليه فى رفعه ، فيبتدئ بالحمد والثناء فيقول : « سمع الله لمن حمده ، ربنا ولك الحمد حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا » فيجد فى وقوفه طمأنينة حلاوة المزيد ، والنعمة التى رفعه الله بها ، وهى استدعاؤه إلى القيام فخر ساجدًا شاكرًا لما أولاه ، فيضع وجهه على الأرض ظاهرًا ونفسه وروحه تحت الثرى الذى ليس وراءه فى السفل منتهى إلا نفوس العارفين والأولياء ؛ لأنهم لما هو عليه من الأسماء الحسنى والصفات العُلى شهداء ، فيضع نفسه تحت كل تحت ، ولذلك ليس وراء السجود منتهى فى التواضع والتكبير مستصحب له ، ومعناه ، أى : الله أكبر مما شاهدت ووقع فى نفسى من تعظيمه وأعلى . =

= فإذا وضع فى السجود نفسه أسفل من كل سفل ، بالمعنى الذى هو الذل ، شاهد من سفله علاء ربه فقال : « سبحان ربى الأعلى » فاستدعاه ربه للرفوع والقرب من البعد والمنزل الذى أنزل نفسه فى سجوده .

ومعنى التسبيح فى الركوع والسجود : تنزيه المركوع له والمسجود له من حالة الركوع والسجود ، أى : سبحان من هو بخلاف حالة الركوع والسجود .

فلما استدعاه للرفوع قعد بالعجز بين يديه ؛ لأنه لم يطق القيام لما شاهد فى السجود من الإجلال والإعظام ، فقعد بين يديه بالسكينة والعجز وأقر بالعجز له أن يقوم بشىء من حق قدر ربه ، ولذلك أمر أن يقول فى قعوده بين السجدتين : « رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم وأنت الأعز الأكرم » ، فيجد رحمة الله قد غشيته ، والمغفرة قد غمرته ، لأنه تجلى له بوصف زائد على الوصف الأول من أجل أن الرحمة مقرونة بالضعف ومسرعة إلى الاستكانة ، فزاد سجودًا آخر بحكم وصف آخر ، فعاد بالتواضع الذى هو المراد من السجود ، حتى لو وجد أن يضع نفسه فى أسفل مما وضعها فيه لوضعها وقد وجد الله =

= مع كل رفع وخفض ، فإن الواجب على كل عبد أن يضع نفسه من التواضع فى خلاف ما هو الله عليه من الجلال والعظمة ، وذلك لا يمكن أبدًا إلا مع التجلى وزيادة التعظيم ، فكلما زاد تجلى الصفات زاد التواضع بقدر ذلك أبدًا .

وكذلك لما زاد الإكرام زاد الشكر والثناء والتجلى دائمًا أبد الآبدين .

وكذلك التواضع دائم أبد الآبدين ، والشكر والثناء وجميع ما يليق بتجلى أوصاف البارى ، والحمد لله على ما هو عليه .

ثم يدعوه ربه إلى الاقتراب منه ، وهو معنى القيام إلى الركعة الثانية ، فيجرى له ما جرى له فى الأول بحكم الزيادة ؛ لأن الصلاة إنما هى ركعة واحدة فيها تمت معانى الصلاة وغير ذلك من الركعات تكرير ، فلا يزال ذلك دأبه مع مولاه من فهم خطابه ، وشهود أوصافه فى قيامه وانحطاطه ، ورفوعه وأذكاره وسجوده ، وجلوسه إلى آخر صلاته حتى يمتلئ ظاهره وباطنه نورًا وبركة ورحمة وسرورًا وتواضعًا وحياءً ، وغير ذلك مما لا يحصى من أحوال المصلين العارفين الخاشعين ، فعند ذلك يقعد فى آخر صلاته ، فيأخذ فى التشهد والشهادة لله بما هو له أهل والثناء كما يجب ، وتفرد التحية والملك له ، والتزكية =

والتنزيه والمدح لبارئه بقول : « التحيات لله الزاكيات لله الطيبات »(١) .

وتفرد العبودية له بقوله : « الصلوات لله » ويسلم على أكرم الوسطاء الذى هداه الله به إلى ما هو فيه محمد عليه الصلاة والسلام ، ثم يقر بكل ما جاء به من عند الله ويصلى عليه .

فإذا فرغ من الإقرار والشهادة بكل ما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام من الإيمان من الغيوب والدعاء والسؤال ، فعند ذلك تمت له النعم بتمام الصلاة وكمالها ، ووجب التحلل منها بتمامها ، فأمر بالخروج إلى عالم الحس والملك فعند ذلك قال : « السلام عليكم » ؛ لأنه كان فى الحضرة العلية خارجًا عن عالم الحس مودعًا له ، كما قال محمد عليه الصلاة والسلام « صل صلاة مودع »(٢). =

(١) رواه الترمذى [٢٨٩] ، وأبو داود [٩٧١] ، وابن ماجه [٨٩٩] والنسائى [٢/٢٣٧] ، وأحمد فى المسند [١/٤١٣] .

(٢) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد [١٠/٢٢٩] ، والزبيدى فى إتحاف السادة المتقين [٣/١٦١] ، والمنذرى فى الترغيب والترهيب [٤/٢٤٧] والألبانى فى الصحيحة [١٩١٤] .

= أى : لأنه خارج عن هذا العالم إلى الحضرة العلية ، فإذا قدم على هذا العالم وشاهد من حوله من الأملاك والإنس قال : « السلام عليكم » فيسلم على من على يمينه وشماله ، وقد حل له ما حرم عليه قبل ذلك ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : « تحريمها التكبير وتحليلها التسليم » [1] .

فمن صنحت له مثل هذه الصلاة وجبت له الكرامة عليها ، ومن اعترضه الوسواس فليجاهد يكتب له أجر المجاهد إذا فاته معية الإحسان ، ومن اقتطعته الغفلات أمثالنا ، وعُدم النصيب الأوفر ومشاهدة المذكور الأكبر كتب له ما عقل ، وذلك فضل عظيم من الله ؛ لأن صلاته كانت فى موجب الأدب أسرع إلى العقوبة منها أن يكتب له ما عقل ؛ إذ لا يدرى بين يدى من هو حتى يعرض إلى غيره بقلبه وهو واقف راكع ساجد بجسده. فعليه أن يكثر التنفل ؛ ليجبر ذلك النقص ، فإنه مطالب به كما ورد : أن النوافل جبر الفرائض ؛ =

(١) أورده الزيلعى فى نصب الراية [٣٠٧/١] ، وابن عبد البر فى التمهيد [١٨٢/٩] ، والقرطبى فى التفسير [٦٢/١٩] ، والهيثمى فى مجمع الزوائد [١٠٤/٢] .

= لأنه لم يؤدها على الوجه الذى يجب والمعنى الذى أمر به ، ولم يكلف الله الخلق من العبادة إلا ما يطيقون ، لكن شُغْلهم بغير ذكر الله حرمهم واقتطعهم عما افترض عليهم .

ونسأل الله الكريم أن يتغمدنا برحمته ، ويتجاوز عن ذنوبنا وتصيرنا برحمته ، فلو لم تكن لنا ذنوب إلا التقصير فى أداء الفرائض لكان كافيًا .

فهذا هو روح الصلاة من حيث المعنى .

وقد انتظم فيما تقدم من الكلام المقامات الثلاثة من الإسلام والإيمان والإحسان . فافهم .

وأما فهم الصلاة من جهة تركيبها وتفاصيل أعضائها وهيئاتها ، فإنها على صورة عبادة العالم الكلى ، وعلى هيئة صلاة العابدين فيه .

فالقيام إلى الصلاة ليكون مع الذين يعرجون إلى الله معرج الملائكة ؛ ليكون مع الراكعين الخاضعين ، والرفوع ليكون مع الصاغرين والسجود ليكون مع الساجدين والفكر والجولان بالفهم والعقل ليكون مع السائحين السابحين الدائرين والحضور ؛ ليكون مع الحاضرين الروحانين ، ووجود =

= الراحة والنعيم بها ؛ ليكون مع الملائكة المقربين المشتاقين المحبين ، والخشوع ؛ ليكون مع الخائفين والمكروبين ، والمجاهدة بالأذكار ؛ ليكون راجمًا للشياطين كالفلكيين ، وإلقاء السمع مع المراقبين ورمز المعانى فى دعاء الفهم ؛ ليكون مع الحافظين الكاتبين.

ومع هذا كله فلا يقوم بشىء من حق الله عز وجل لعظيم ما هو الله عليه من جلال القدر وعظيم الخطر ، لكن يجد الراحة فى شهود المنة ؛ إذ هو ربه على ما هو عليه من أوصافه ومع ذلك استدعاه إلى أن يكون من عباده المؤمنين ، فيستشعر فى نفسه ذلك ويقول : كيف ذكرنى هذا الملك العظيم فى نفسه حتى ينزل من جلال كبريائه إلى صفات جناته ورحمته حتى كلمنى بكلامه ، واستدعانى لأن أكون من جملة المصلين من عباده ؟! فينوى ويتمنى ويود فى نفسه أن لو كان تقرب إليه بعبادة الخلق أجمعين على غاية الصفاء لو قدر على ذلك ، فبهذا تفهم قوله : « نية المؤمن خير من عمله »[1] . =

(١) رواه الطبرانى فى الكبير [٥٩٤٢/١٨٥/٦] ، وهو فى مسند الشهاب [١٤٨/١١٩/١] وقال الهيثمى فى =

= ثم يشهد عجزه وتقصيره عن ذلك ، فيرجع إلى رؤية التقصير والاستغفار من قلة القيام ببعض الواجب ، ولذلك كان رسول الله ﷺ يستغفر بعد كل صلاة مرات ، وورد ذلك فى الصحيح ، فيتوب من الحسنات كما يتوب العاصى من السيئات ؛ لأن : حسنات الأبرار سيئات المقربين .

ولذلك تقول الملائكة يوم القيامة : سبحانك ما عبدناك حق عبادتك ، على صفاء عبادتها من شوب الكدورات ، وهذا المعنى الذى تقوله الملائكة هو الذى قاله النبى عليه الصلاة والسلام فى قوله : « لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله » . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ =

= مجمع الزوائد [٦١/١] ورجاله موثقون إلا حاتم بن عباد ابن دينار الجرشى ، لم أر من ذكر له ترجمة وقال [١٠٩/١] : وفيه حاتم بن عباد بن دينار ، لم أعرفه وبقية رجاله ثقات ، وقال المناوى : أطلق الحافظ العراقى أنه ضعيف من طريقه .

= قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل »[1].
مع اجتهاده وصفات أحواله ، وليس معناه أن العمل ليس ينفع فيكون قوله محرضًا على ترك العمل ، بل قوله هذا مرغب فى الاجتهاد لجميع ما يقرب إلى الله تعالى فنبه عليه الصلاة والسلام على عظيم حق الله تعالى الموجب لرؤية التقصير .
فالعبادات كلها لها وجهان ، تنظر منهما مرة بنظر من مقام العبودية ومشاهدة الربوبية ، وهو من هذا الوجه الذى ذكرناه ، فتعرف مقدار المعبود ، وما تقع عبادتك فى حقه وجلالة قدره ، فتكون عبادة الخلق أجمعين فى ذلك أقل من غرز إبرة في بحر لجىّ فيولِّد هذا النظر الإجهاد والانكسار والخضوع والذلة والفقر إلى الله ، وجميع صفات العبودية الحسنى ، التى ساعة واحدة منها خير من عبادة ستين سنة . ومرة ينظر من مقام المنة ، وكيف ذكر الملك الأكبر الذى استعبد العرش بما حوى فى نفسه لهذا العبد الذى لا يدرى من هو فى كثرة عباد الله ومماليكه ، وكيف ارتضاه للإيمان به ، واستدعاه لعبادته ومناجاته والقرب منه حتى يجعله من جلسائه ، كما قال : أنا جليس من ذكرنى =

(1) أخرجه مسلم [٢٨١٦/٧٣] ، وأحمد فى المسند [٢/٥٠٩] واللفظ له .

= فيتولد من هذا النظر أيضًا أحوال كريمة ، لا يعلم حقيقتها إلا العارفون مثل الحياء الكائن عن الحضور ، والشكر الحادث عن رؤية المنة ، والمحبة المتولدة عن إحسان الله .
إلى غير ذلك مما يشرحه الله فى قلوب المختصين بهذا المقام ، وهو معنى قول الله تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [العنكبوت : ٤٥] أى ذكر الله للعبد فى نفسه أكبر من كل ما يتقرب به إليه ، فعلى هذين الوجهين من النظر درج العارفون فى علومهم وأعمالهم ، وبهما تزكو الأعمال عند الله ، نسأل الله الكريم أن يَمُنَّ علينا بما مَنَّ عليهم فى الدنيا والآخرة إنه ولى ذلك والقادر عليه .
واعلم أن الوجود كله بأجزائه مُصلٍّ لله بدوام وجود الوجود ، لا ينفك عن الصلاة ، فإنه فى مقام العبودية لله . فمن أدام النظر رأى الوجود كله ظاهرًا وباطنًا مصليًا .
ومن ترك الصلاة فقد خالف الخليقة كلها ، ولذلك يحشر مع فرعون وهامان كما ورد فى بعض الأخبار : أن تارك الصلاة يحشر مع فرعون وهامان ؛ لأنه تأبى من العبودية والتواضع لله كما فعل فرعون . فافهم .

= فإن الذى لا يخضع لأحد هو الله وحده ، فمن صلى بجسده وفعل أركان الصلوات كما أمر ظاهرًا ، وأنزل نفسه مع كل ركن منها ومعنى من معانيها الباطنة ، وفهم روحه وعقله تلك المعانى ، وشهد المراد بكل ركن منها ومعنى من معانيها ؛ فقد صلى بجسد ، وفعل أركان الصلوات كما أمر بظاهره وباطنه وجملته فى عالم الحس ومقام الإسلام ، وفى عالم الغيب ومقام الإيمان ، وفى غيب الغيب ومقام الإحسان ، ووجد طعم المعانى الثلاث .

مَنَّ الله علينا وعليكم بالكمال فى كل شىء . آمين بِمَنِّه ورحمته ، وصلى الله على محمد وآله وسلم .

شعب الإيمان [ص : ١١٩:١٢٦] .

الكسل عن الصلاة
علامة من علامات النفاق

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ ﴾ [النساء : ١٤٢]

كيف يقومون إلى الصلاة كسالى ؟ إن الغايات من الأحداث هى التى تضفى على الجوارح الإقبال على الأحداث ، فإذا كان الحدث الذى تقبل عليه حدثاً تحبه فأنت تقبل عليه بكل اشتياق ولهفة ، ولذلك يقيسون لهفة اللقاء فهى التى تحدد درجة المحبة .

ولنفرض مثلًا أن رجلًا وزوجته يتقابلان بعد طول غياب ما الذى يبين حد الود بينهما ؟ إن لحظة اللقاء تبين ما بينهما من مودة ، فإن كانت المسافة بينهما عشر خطوات فكم خطوة خطاها الاثنان وبأية سرعة ؟ إنهما قد يسرعان باللهفة فيقطعان الخطوات العشر فى ثلاث خطوات مثلًا ، وهذا معناه : تقصير زمن اللقاء ، وأيضاً ما الكيفية التى يتم بها السلام ؟ هل

يسلم أحدهما على الآخر ببرود ، أم بنصف ود أم بود كبير أم بود مصحوب بلهفة وعناق ؟ ثم ما المدة التى يقع خلالها الاحتضان هل هى دقيقة أم دقيقتان أم ثلاث ؟

إذن .. فالذى يبين قيمة الود هو التلهف فى المدة ، وهذه العناصر الثلاثة أخذها الشعراء للتعبير عن المودة والحب بين البشر ، وقديماً كان المتيمون بالنساء يسترون فى السلام مودتهم .

وقيل : إنك إذا أردت أن تعرف المودة بين رجل وامرأة ومدى لهفة كل منهما على الآخر ، وتحكم بذلك ، فلا بد أن تعرف ما الكيفية التى يتم بها اللقاء ؟ فإذا ما صافح الرجل المرأة .. فهل يصافحها بتلهف ؟ وهل تبادله هذه اللهفة ؟ فإن وجدت الكف مفرودة للمصافحة فقط فهذا سلام عادى ، أما إذا أثنى أحدهما إصبعه البنصر على كف الآخر فعليك أن ترى أى طرف هو الذى قام بثنى إصبعه ليحتضن اليد كلها فى يده ، فإن كان ذلك هو الرجل فاللهفة منه ، وإن كان من المرأة فاللهفة منها ، وإن كان من الاثنين فاللهفة منهما معاً .

هكذا يقابل الإنسان الأحداث ، فإن كان الحدث سارًا فالإنسان يقبل عليه بلهفة ، وإن لم يكن الحدث سارًا فالإنسان يقوم إليه متثاقلاً ، وهكذا كان يقوم المنافقون إلى الصلاة : ﴿ كُسَالَىٰ ﴾ كأنهم يؤدون الصلاة يخفون بها نفاقهم ويسترون أنفسهم عن أعين المسلمين .

إن قيامهم إلى الصلاة لم يكن شوقاً إلى لقاء الله مثلما كان يقول رسول الله ﷺ لبلال رضى الله تعالى عنه : « يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها يا بلال »(1) ولم يقل أرحنا منها يا بلال .

إن المؤمن يرتاح عندما يؤدى الصلاة ، أما المنافق فهى عملية شاقة بالنسبة إليه ، إنه يؤديها ليستتر بها عن أعين المسلمين ، لذلك يقوم إليها وهو كسلان .

قال الله تعالى عنهم : ﴿ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء : ١٤٢] لماذا إذن يقومون إلى الصلاة ما داموا غير مؤمنين بها ؟ إنهم يُقيمُونَ الصلاة ظاهرياً أمام الناس ليخدعوا الناس ، وحتى يراهم المسلمون وهم يصلون ، وهم فى هذه الصلاة التى يراءون بها الناس لا يقولون كل المطلوب منهم

---

(1) رواه أبو داود [٤٩٨٥] عن مسعر رضى الله تعالى عنه . وقال الألبانى : صحيح .

لتمام الصلاة .. إنهم يقولون المطلوب قوله جهراً ، ولا يقومون بما يفترضه اللّه عليهم ، والمطلوب لتمام الصلاة ما يفعل سرًا وجهراً مثال ذلك أنهم يقرءون الفاتحة وبعض القرآن ولكنهم أثناء الركوع لا يسبحون باسم اللّه العظيم وكذلك فى السجود إنهم يؤدون الجانب الجهرى من الصلاة ولا يؤدون الجانب الآخر . إن فى داخل المنافق تيارين متعارضين : تيار يظهر به أنه مع المؤمنين وتيار آخر مع الكافرين ؛ إن التيار الذى مع المؤمنين يجبر المنافق على أن يقوم إلى الصلاة ، والتيار الذى مع الكافرين يجعله كسولاً عن ذلك ، والتيار الذى مع المؤمنين يجعله يذكر اللّه قليلاً ، والتيار الذى مع الكافرين يجعله لا يذكر اللّه ومن هنا فقد جاء فى وصف رسول اللّه ﷺ لصلاة الفجر أنها صلاة ثقيلة على المنافقين (١) .

---

(١) أخرج مسلم [٢٥٢/٦٥١] عن أبى هريرة رضى اللّه تعالى عنه قال قال رسول اللّه ﷺ : « إن أثقل صلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر ، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حَبواً . ولقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام ، ثم آمر رجلاً فيصلى بالناس . ثم أنطلق معى برجال معهم حزم من حَطب ، إلى قوم لا يشهدون الصلاة ، فأحرق عليهم بيوتهم بالنار » .

صفة صلاة النبى ﷺ
من التكبير حتى التسليم كأنك تراها

كان رسول اللّه ﷺ إذا قام إلى الصلاة واستقبل القبلة ووقف فى مُصلاه رفع يديه إلى فروع أذنيه (١)واستقبل بأصابعه القبلة ونشرها (٢) وقال : « اللّه أكبر » .

ولم يكن يقول قبل ذلك : نويت أن أصلى كذا وكذا مستقبل القبلة أربع ركعات فريضة الوقت أداءً للّه تعالى إمامًا ، ولا كلمة واحدة من ذلك فى مجموع صلاته من أولها إلى آخرها .

فقد نقل عنه أصحابه حركاته وسكناته وهيئاته حتى اضطراب لحيته فى الصلاة ، حتى إنه حمل بنت ابنته مرة فى

---

(١) أخرجه مسلم [٣٩١/٢٥و٢٦] ، وأبو داود [٧٤٥] ، وابن ماجه [٨٥٩] ، وأحمد فى المسند [٤٣٦/٣،٤٣٧] عن مالك بن الحويرث رضى اللّه تعالى عنه .

(٢) رواه الترمذى [٢٣٩] عن أبى هريرة رضى اللّه تعالى عنه . وضعفه الألبانى فى ضعيف الترمذى [٣٧] .

الصلاة فنقلوه ولم يهملوه [1]، فكيف يتفق ملؤهم من أولهم إلى آخرهم على ترك نقل هذا المهم الذى هو شعار الدخول فى الصلاة ؟ ولعمر الله لو ثبت عنه من هذا كلمة واحدة لكُنا أول من اقتدى به فيها ، وبادر إليها .

ثم كان يمسك شماله بيمينه فيضعها عليها فوق المفصل [2] ثم يضعها على صدره [3] ثم يقول : « سبحانك ، اللهم باعد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب ، اللهم نقنى من خطاياى كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس ، اللهم اغسلنى من خطاياى بالماء والثلج والبرد » [4] .

(١) أخرجه البخارى [٥٩٩٦،٥١٦] ، ومسلم [٤١/٥٤٣] عن أبى قتادة رضى الله تعالى عنه .

(٢) أخرجه مسلم [٥٤/٤٠١] ، وأحمد فى المسند [٤/ ٣١٨،٣١٧] عن وائل بن حجر رضى الله تعالى عنه .

(٣) رواه أبو داود [٧٥٩] عن طاوس وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [٦٨٧] .

(٤) أخرجه البخارى [٧٤٤] ، ومسلم [١٤٧/٥٩٨] ، وأبو داود [٧٨١] من حديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه .

وكان يقول أحيانًا : « وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفًا مسلمًا وما أنا من المشركين ﴿ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأنعام] ، اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت وأنا عبدك ، ظلمت نفسى ، واعترفت بذنبى ، فاغفر لى ذنوبى جميعًا لا يغفر الذنوب إلا أنت ، واهدنى لأحسن الأخلاق لا يهدى لأحسنها إلا أنت ، واصرف عنى سيئها لا يصرف عنى سيئها إلا أنت ، لبيك وسعديك ، والخير كله فى يديك ، والشر ليس إليك أنا بك وإليك ، تباركت وتعاليت ، أستغفرك وأتوب إليك » . ولكن هذا إنما حُفظ عنه فى صلاة الليل [1] .

وربما كان يقول : « الله أكبر كبيراً الله أكبر كبيراً ،

(١) أخرجه مسلم [٢٠١/٧٧١] ، وأبو داود [٧٦١] عن علىّ بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه .

والحمد لله كثيرا والحمد لله كثيراً ، وسبحان الله بكرة وأصيلاً »(١) .

وربما كان يقول : « الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا أنت ، لا إله إلا أنت ، سبحان الله وبحمده ، سبحان الله وبحمده .

ثم يقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، وربما قال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم من نفخه ونفثه وهمزه ، وربما قال : اللهم إنى أعوذ بك من الشيطان الرجيم وهمزه ونفخه ونفثه »(٢) . ثم يقرأ فاتحة الكتاب (٣) ، فإن كانت الصلاة

---

(١) رواه أبو داود [٧٦٤] ، وابن ماجه [٨٠٧] ، وأحمد فى المسند [٨٥،٨٠/٤] عن المطعم رضى الله تعالى عنه ، وضعفه الألبانى فى ضعيف ابن ماجه [١٧٣] .

(٢) رواه أبو داود [٧٧٥] ، والترمذى [٢٤٢] ، وابن ماجه [٨٠٤] ، وأحمد فى المسند [٥٠/٣] ، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [٧٠١] عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه .

(٣) أخرجه البخارى [٧٥٦] ، ومسلم [٣٤/٣٩٤] ، وأبو داود [٨٢٢] عن عبادة بن الصامت رضى الله تعالى عنه .

جهرية أسمعهم القراءة ولم يسمعهم : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾(١) فربه أعلم هل كان يقرؤها أم لا ؟

وكان يقطع قراءته آية آية ، ثم يقف على ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ثم يبتدئ ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ويقف ثم يبتدئ ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ على رسل وتمهل وترتيل يمد الرحمن ويمد الرحيم ، وكان يقرأ ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ بالألف(٢) .

وإذا ختم السورة قال : « آمين » يجهر بها ويمد بها صوته ويجهر بها من خلفه (٣) حتى يرتج المسجد .

---

(١) أخرجه البخارى [٧٤٣] عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه : أن النبى ﷺ وأبا بكر وعمر كانوا يفتتحون الصلاة بـ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ، وبنحوه الترمذى [٢٤٦] ، ومسلم [٥٠/٣٩٩] .

(٢) رواه أحمد فى المسند [٣٠٢/٦] ، وأبو داود [٤٠٠١] ، والترمذى [٣١٠٧] عن أم سلمة رضى الله تعالى عنها . وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى [٢٣٣٦] .

(٣) رواه أبو داود [٩٣٢] ، والترمذى [٢٤٨] عن وائل بن حجر ، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [٨٢٤] .

واختلفت الرواية عنه هل كان يسكت بين الفاتحة وقراءة السورة ، أم كانت سكتة بعد القراءة كلها ؟ فقال يونس عن الحسن عن سمرة : حفظت سكتتين ، سكتة إذا كبر الإمام حتى يقرأ . وسكتة إذا فرغ من فاتحة الكتاب وسورة عند الركوع ، وصدقه أُبى بن كعب على ذلك(1).

ووافق يونس أشعث الحمرانى عن الحسن فقال : سكتة إذا استفتح ، وسكتة إذا فرغ من القراءة كلها (2).

وخالفهما قتادة فقال عن الحسن : إن سمرة بن جندب وعمران بن الحصين تذاكرا ، فحدث سمرة أنه حفظ عن رسول الله ﷺ سكتتين : سكتة إذا كبر ، وسكتة إذا فرغ من قراءة ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ فقط . فحفظ

(1) رواه أبو داود [٧٧٧] ، وابن ماجه [٨٤٥] ، وأحمد فى المسند [١٢/٥] عن سمرة رضى الله تعالى عنه وضعفه الألبانى فى ضعيف ابن ماجه [١٨١] وقال الأرناؤوط : رجاله ثقات .

(2) رواه أبو داود [٧٧٨] عن سمرة رضى الله تعالى عنه ، وضعفه الألبانى فى ضعيف أبى داود [١٦٤] .

ذلك سمرة وأنكر عليه عمران بن الحصين ، فكتبا فى ذلك إلى أُبى بن كعب ، فكان فى كتابه أن سمرة قد حفظ .

وقال قتادة أيضًا عن الحسن عن سمرة : سكتتان حفظهما عن رسول الله ﷺ إذا دخل فى الصلاة وإذا فرغ من القراءة ، ثم قال بعد : وإذا قال : ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾(1).

فقد اتفقت الأحاديث أنهما سكتتان فقط ، إحداهما سكتة الافتتاح ، والثانية مختلف فيها . فالذى قال : إنها بعد قراءة الفاتحة هو قتادة ، وقد اختلف عليه سمرة ، فمرة قال ذلك ، ومرة قال : بعد الفراغ من القراءة ، ولم يختلف على يونس وأشعث أنها بعد فراغه من القراءة كلها ، وهذا أرجح الروايتين . والله أعلم (2) .

(1) رواه أبو داود [٧٧٩، ٧٨٠] ، والترمذى [٢٥١] ، وابن ماجه [٨٤٤] ، وأحمد [٧/٥] عن سمرة بن جندب رضى الله تعالى عنه ، وضعفه الألبانى فى ضعيف أبى داود [١٦٥، ١٦٦] .

(2) رواه الدارمى [٢٨٣/١] ، وأحمد فى المسند [١٥/٥، ٢٠، ٢١] عن سمرة بن جندب .

وبالجملة فلم ينقل عنه ﷺ بإسناد صحيح ولا ضعيف أنه كان يسكت بعد قراءة الفاتحة حتى يقرؤها من خلفه ، وليس فى سكوته فى هذا المحل إلا هذا الحديث المختلف فيه كما رأيت ، ولو كان يسكت هنا سكتة طويلة يدرك فيها قراءة الفاتحة لما اختفى ذلك على الصحابة ، ولكان معرفتهم به ونقلهم أهم من سكتة الافتتاح .

ثم يقرأ بعد ذلك سورة طويلة تارة ، وقصيرة تارة ، ومتوسطة تارة كما تقدم ذكر الأحاديث به .

ولم يكن يبتدئ من وسط السورة ولا من آخرها ، وإنما كان يقرأ من أولها ، فتارة يكملها وهو أغلب أحواله ، وتارة يقتصر على بعضها ويكملها فى الركعة الثانية .

ولم ينقل أحد عنه أنه قرأ بآية من سورة أو بآخرها إلا فى سنة الفجر ، فإنه كان يقرأ فيها بهاتين الآيتين : ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ [البقرة : ١٣٦] ، ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾[1] [آل عمران : ٦٤] .

(١) ذكره النووى فى الأذكار : ما يقوله إذا دخل فى الصلاة باب القراءة بعد التعوذ .

وكان يقرأ بالسورة فى الركعة ، وتارة يعيدها فى الركعة الثانية ، وتارة يقرأ سورتين فى الركعة .

أما الأول : فكقول عائشة أنه قرأ فى المغرب بالأعراف فرّقها فى الركعتين[1] .

وأما الثانى : فقراءته فى الصبح ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ﴾ فى الركعتين كلتيهما ، والحديثان فى السنن [2] .

وأما الثالث : فكقول ابن مسعود : ولقد عرفت النظائر التى كان رسول الله ﷺ يقرن بينها ، فذكر ثمان عشر سورة من المفصل وسورتين من آلِ حم وهذا فى الصحيحين [3] .

وكان يمد قراءة الفجر ويطيلها أكثر من سائر الصلوات ،

(١) رواه النسائى [١٧٠/٢] عن عائشة رضى الله تعالى عنها .

(٢) رواه أبو داود [٨١٦] عن رجل من جهينة ، وحسنه الألبانى فى صحيح أبى داود [٧٣٠] .

(٣) أخرجه البخارى [٥٠٤٣] ، ومسلم [٢٧٥/٨٢٢] عن عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه .

وأقصر ما حفظ عنه أنه كان يقرأ بها فيها فى الحضر ﴿ قٓ ﴾ ونحوها .

وكان يجهر بالقراءة فى الفجر والأوليين من المغرب والعشاء ويسر فيما سوى ذلك ، وربما كان يسمعهم الآية فى قراءة السر أحيانًا .

وكان يقرأ فى فجر يوم الجمعة سورة السجدة ﴿ الٓمٓ تَنزِيلُ ﴾ و ﴿ هَلْ أَتَىٰ ﴾ كاملتين ، ولم يقتصر على إحداهما ولا على بعض هذه فقط ، وكان يقرأ فى صلاة الجمعة بسورة ﴿ الْجُمُعَةِ ﴾ و ﴿ الْمُنَافِقُونَ ﴾ كاملتين ، ولم يقتصر على أواخرهما ، وربما كان يقرأ بسورة ﴿ الْأَعْلَىٰ ﴾ و ﴿ الْغَاشِيَةِ ﴾ .

وكان يقرأ فى العيدين بسورة ﴿ قٓ ﴾ و ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ﴾ كاملتين ، ولم يقتصر على أواخرهما .

وكان يقرأ فى صلاة السر سورة فيها « السجدة » أحيانًا فيسجد للسجدة ، ويسجد معه من خلفه .

وكان يقرأ فى الظهر قدر ﴿ الٓمٓ تَنزِيلُ ﴾ السجدة ونحو ثلاثين آية ، ومرة كان يقرأ فيها بـ ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ ،

و ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴾ ، و ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾ ، و ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴾ ونحوها من السور ، ومرة بـ ﴿ لُقْمَانَ ﴾ ، ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ﴾ .

وكان يقوم فى الركعة الأولى منها حتى لا يسمع وقع قدم ، وكذلك كان يطيل الركعة الأولى من كل صلاة على الثانية .

وكانت قراءته فى العصر فى الركعتين الأوليين فى كل ركعة قدر خمس عشرة آية .

وكان يقرأ فى المغرب بـ ﴿ الْأَعْرَافِ ﴾ تارة ، و ﴿ وَالطُّورِ ﴾ تارة و ﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ ﴾ تارة ، وبالـ ﴿ دُخَانٌ ﴾ تارة ، وروى عنه أنه قرأ فيها بـ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ ، و ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ تفرد به ابن ماجه ، ولعل أحد رواته وهم من قراءته بهما فى سنة المغرب ، فكان يقرأ بهما فى سنة المغرب فقال : كان يقرأ بهما فى المغرب أو سقطت « سنة » من النسخة . والله أعلم .

وكان يقرأ فى العشاء الآخرة بـ ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴾ وسورة ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ ويسجد فيها جميع من خلفه ، و ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ ونحو ذلك من السور .

وكان إذا فرغ من القراءة سكت هنيهة ليرجع إليه نفسه .

ثم كان يرفع يديه إلى أن يحاذى بهما فروع أذنيه كما رفعهما في الاستفتاح صح عنه ذلك كما صح التكبير للركوع بل الذين رووا عنه رفع اليدين ههنا أكثر من الذين رووا عنه التكبير ، ثم يقول : « اللَّه أكبر » ويخر راكعًا ويضع يديه على ركبتيه فيمكنهما من ركبتيه ، وفرج بين أصابعه وجافى مرفقيه عن جنبيه ، ثم اعتدل وجعل رأسه حيال ظهره فلم يرفع رأسه ولم يصوبه ، وهصر ظهره أى : مده ولم يجمعه [1]، ثم قال : « سبحان ربى العظيم » [2] .

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى [٨٢٨] ، وأبو داود [٧٣٠،٧٣٣،٩٦٦] ، والترمذى [٣٠٤،٣٠٥] ، وابن ماجه [١٠٦١] عن أبى حميد الساعدى رضى اللَّه تعالى عنه .

(٢) رواه أبو داود [٨٦٩] ، وبن ماجه [٨٨٧] ، وأحمد فى المسند [١٥٥/٤] عن عقبة بن عامر ، وضعفه الألبانى فى ضعيف أبى داود [١٨٤] .

وروى عنه أنه كان يقول : « سبحان ربى العظيم وبحمده » . قال أبو داود : وأخاف أن لا تكون هذه الزيادة محفوظة [1] .

وربما مكث قدر ما يقول القائل عشر مرات ، وربما مكث فوق ذلك ودونه [2]. وربما قال : « سبحانك اللهم وبحمدك ، اللهم اغفر لى »[3].

---

(١) رواه أبو داود [٨٧٠] عن عقبة بن عامر رضى اللَّه تعالى عنه ، وضعفه الألبانى فى ضعيف أبى داود ، وصحح الألبانى هذه الزيادة فى صفة الصلاة [٧٧:٥٩] .

(٢) روى أبو داود [٨٨٨] ، وأحمد فى المسند [١٦٢/٣،١٦٣] عن وهب بن مأنوس قال : سمعت سعيد بن جبير يقول : « ما صليت وراء أحد بعد رسول اللَّه ﷺ أشبه صلاة برسول اللَّه ﷺ من هذا الفتى » . يعنى : عمر بن عبد العزيز ، فحرزنا فى ركوعه عشر تسبيحات وفى سجوده عشر تسبيحات . وضعفه الألبانى فى ضعيف أبى داود [١٨٩] .

(٣) أخرجه البخارى [٧٩٤] ، ومسلم [١٧/٤٨٤] عن عائشة رضى اللَّه تعالى عنها .

وربما قال : « سبوح قدوس رب الملائكة والروح »[1]، وربما قال : « اللهم لك ركعت ، وبك آمنت ، ولك أسلمت ، وعليك توكلت ، أنت ربى ، خشع قلبى وسمعي ، وبصرى ودمى ، ولحمى وعظمى وعصبى لله رب العالمين »[2].

وربما كان يقول : « سبحان ذى الجبروت والملكوت ، والكبرياء والعظمة »[3] . وكان ركوعه مناسبًا لقيامه فى التطويل والتخفيف ، وهذا بيِّنٌ فى سائر الأحاديث[4] .

(١) أخرجه مسلم [٤٨٧/٢٢٣] ، وأبو داود [٨٧٢] عن عائشة رضى الله تعالى عنها .

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم [٧٧١/٢٠٢] ، وأبو داود [٧٦٠] عن عليّ رضى الله تعالى عنه .

(٣) رواه أبو داود [٨٧٣] عن عوف بن مالك الأشجعى وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [٧٧٦] .

(٤) أخرجه البخاري [٧٩٢] ، ومسلم [٤٧١/١٩٣] ، وأبو داود [٨٥٢،٨٥٤] ، والترمذى [٢٧٩،٢٨٠] وغيرهم . عن البراء بن عازب رضى الله تعالى عنه .

قال ابن القيم : ولا يناقض هذا ما رواه البخارى فى =

ثم كان يرفع رأسه قائلًا : « سمع الله لمن حمده »[1] ويرفع يديه كما يرفعهما عند الركوع ، فإذا اعتدل قائمًا قال : « ربنا لك الحمد »[2] ، وربما قال : « اللهم ربنا ولك الحمد ملء السموات وملء الأرض ، وملء ما شئت من شيء بعد ، أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد ، وكلنا لك عبد ، اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد

= هذا الحديث : « كان ركوع النبى ﷺ وسجوده وما بين السجدتين وإذا رفع رأسه ما خلا القيام والقعود قريبًا من السواء » فإن البراء هو القائل هذا وهذا ، فإنه فى السياق الأول أدخل فى ذلك قيام القراءة وجلوس التشهد ، وليس مراده أنهما بقدر ركوعه وسجوده ، وإلا ناقض السياق الأول والثانى ، وإنما المراد أن طولهما كان مناسبًا لطول الركوع والسجود والاعتدالين بحيث لا يظهر التفاوت الشديد فى طول هذا ، وقصر هذا .

(١) أخرجه مسلم [٣٩١/٥] عن مالك بن الحويرث رضى الله عنه .

(٢) أخرجه البخارى [٣٢٢٨] ومسلم [٤٠٩/٧١] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه .

منك الجد »[1] وربما زاد على ذلك : « اللهم طهرنى بالثلج والبرد والماء البارد ، اللهم طهرنى من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الوسخ »[2] ، وكان يطيل هذا الركن حتى يقول القائل قد نسى ، وكان يقول فى صلاة الليل فيه : « لربى الحمد ، لربى الحمد »[3] .

ثم يكبر ويخر ساجداً ولا يرفع يديه [4] ، وكان يضع ركبتيه قبل يديه ، هكذا قال عنه وائل بن حجر[5] وأنس بن مالك[6] .

(١) أخرجه مسلم [٢٠٥/٤٧٧] عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه .

(٢) أخرجه مسلم [٢٠٤/٤٧٦] عن عبد الله بن أبى أوفى رضى الله تعالى عنه .

(٣) رواه أبو داود [٨٧٤] ، والنسائى [١٩٩/٢-٢٠٠] ، وأحمد فى المسند [٣٩٨/٥] عن حذيفة رضى الله تعالى عنه .

(٤) أخرجه البخارى [٧٣٨] ، وأبو داود [٧٢٣] ، وأحمد فى المسند [٣١٧/٤] عن وائل بن حجر رضى الله تعالى عنه .

(٥) رواه أبو داود [٨٣٨] ، والترمذى [٢٦٨] ، وابن ماجه [٨٨٢] عن وائل بن حجر ، وضعفه الألبانى فى ضعيف أبى داود [١٨١] .

(٦) رواه الدارقطنى [٣٤٥/١] ، والحاكم [٢٢٦/١] .

قال عنه ابن عمر إنه كان يضع يديه قبل ركبتيه [1] .

واختلف على أبى هريرة ، ففى السنن عن النبى ﷺ : « إذا سجد أحدكم فلا يبرك كما يبرك البعير وليضع يديه قبل ركبتيه » [2] .

وروى عنه المقبرى عن النبى ﷺ : « إذا سجد أحدكم فليبدأ بركبتيه قبل يديه » [3] ، فأبو هريرة قد تعارضت الرواية عنه ، وحديث وائل وابن عمر قد تعارضا ، فرجحت طائفة حديث ابن عمر ، ورجحت طائفة حديث وائل بن حجر ، وسلكت طائفة مسلك النسخ وقالت : كان الأمر الأول وضع اليدين

(١) رواه الطحاوى فى شرح معانى الآثار [٢٥٤/١] عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما .

(٢) رواه أبو داود [٨٤٠] ، والنسائى [٢٠٧/٢] ، وأحمد فى المسند [٣٨١/٢] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [٧٤٦] .

(٣) رواه البيهقى فى السنن [١٠٠/٢] وفيه : المقبرى ، وهو متروك الحديث ، انظر الجرح والتعديل [٧١/٥] .

قبل الركبتين ثم نسخ بوضع الركبتين أولًا ، وهذه طريقة ابن خزيمة فى ذكر الدلائل على أن الأمر بوضع اليدين عند السجود منسوخ ، فإن وضع الركبتين قبل اليدين ناسخ ، ثم روى عن مصعب بن سعد قال : كنا نضع اليدين قبل الركبتين فأمرنا بوضع الركبتين قبل اليدين (١) ، وهذا لو ثبت لكان فيه الشفاء ، لكن يحيى بن سلمة بن كهيل قال البخارى : عنده مناكير ، وقال ابن معين : ليس بشىء لا يكتب حديثه ، وقال النسائى : متروك الحديث . وهذه القصة وهم فيها يحيى أو غيره ، وإنما المعروف عن مصعب بن سعد عن أبيه نسخ التطبيق فى الركوع بوضع اليدين على الركبتين ، فلم يحفظ هذا الراوى وقال : المنسوخ وضع اليدين قبل الركبتين .

قال السابقون باليدين : قد صح حديث ابن عمر فإنه من

(١) رواه ابن خزيمة [٦٢٨] ، والبيهقى فى السنن [٢/١٠٠] من طريق إبراهيم بن إسماعيل عن أبيه عن جده ، وإبراهيم ضعيف ، وأبوه متروك ، وجده متروك ، انظر تهذيب التهذيب [١١/٢١٥] .

رواية عبيد الله عن نافع عنه ، قال ابن أبى داود : وهو قول أهل الحديث .

قالوا : وهو أعلم بهذا من غيرهم ، فإنه نقل محض .

قالوا : وهذه سنة رواها أهل المدينة وهم أعلم بها من غيرهم ،

قال ابن أبى داود ولهم فيها إسنادان :

أحدهما : محمد بن عبد الله بن حسن عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة .

والثانى : الدراوردى عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر .

قالوا : وحديث وائل بن حجر له طريقان وهما معلولان ، فى أحدهما شريك تفرد به ، قال الدارقطنى : وليس بالقوى فيما يتفرد به .

والطريق الثانى : من رواية عبد الجبار بن وائل عن أبيه ولم يسمع من أبيه (١) .

(١) رواه أبو داود [٨٣٩] عن عبد الجبار بن وائل عن أبيه رضى الله تعالى عنهما ، وضعفه الألبانى فى ضعيف أبى داود [١٨٢] .

وقال السابقون بالركبتين : حديث وائل بن حجر أثبت من حديث أبى هريرة وابن عمر ، قال البخارى : حديث أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة لا يتابع عليه ، فيه محمد بن عبد الله بن الحسن قال : ولا أدرى سمع من أبى الزناد أم لا ؟

وقال الخطابى : حديث وائل بن حجر أثبت منه ، قال : وزعم بعض العلماء أنه منسوخ ؛ ولهذا لم يحسنه الترمذى وحكم بغرابته وحسّن حديث وائل .

قالوا : وقد قال فى حديث أبى هريرة : « لا يبرك كما يبرك البعير » ، والبعير إذا برك بدأ بيديه قبل ركبتيه ، وهذا المعنى لا يمانع قوله : « وليضع يديه قبل ركبتيه » بل ينافيه ويدل على أن هذه الزيادة غير محفوظة ، ولعل لفظها انقلب على بعض الرواة .

قالوا : ويدل على ترجيح هذا أمران آخران :

أحدهما : ما رواه أبو داود من حديث ابن عمر : « أن رسول الله ﷺ نهى أن يعتمد الرجل على يديه فى الصلاة »[1] ،

(١) رواه أبو داود [٩٩٢] ، وأحمد فى المسند [١٤٧/٢] ، وانظر الذى بعده .

وفى لفظ : « نهى أن يعتمد الرجل على يديه إذا نهض فى الصلاة »[1] ولا ريب أنه إذا وضع يديه قبل ركبتيه اعتمد عليهما ، فيكون قد أوقع جزءاً من الصلاة معتمدًا على يديه بالأرض ، وأيضًا فهذا الاعتماد بالسجود نظير الاعتماد فى الرفع منه سواء ، فإذا نهى عن ذلك كان نظيره كذلك .

الثانى : أن المصلى فى انحطاطه ينحط منه إلى الأرض الأقرب إليها أولًا ، ثم الذى من فوقه ثم الذى من فوقه حتى ينتهى إلى أعلى ما فيه وهو وجهه فإذا رفع رأسه من السجود ارتفع أعلى ما فيه أولًا ، ثم الذى دونه حتى يكون آخر ما يرتفع منه ركبتاه . والله أعلم .

ثم كان يسجد على جبهته وأنفه ويديه وركبتيه وأطراف قدميه[2] ويستقبل بأصابع يديه ورجليه القبلة ، وكان يعتمد

(١) رواه أبو داود [٩٩٢] عن ابن عمر رضى الله تعالى عنه ، وقال الألبانى فى صحيح أبى داود [٨٧٥] : صحيح إلا لفظ ابن عبد الملك فإنه منكر .

(٢) جزء من حديث أبى حميد الساعدى سبق تخريجه .

على إليتى كفيه ويرفع مرفقيه ويجافى عضديه عن جنبيه حتى يبدو بياض إبطيه ، ويرفع بطنه عن فخذيه وفخذيه عن ساقيه ، ويعتدل فى سجوده [1] ، ويمكن وجهه من الأرض مباشراً به للمصلّى غير ساجد على كور العمامة [2] .

قال أبو حميد الساعدى وعشرة من الصحابة يسمعون كلامه : « كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة اعتدل قائمًا ورفع يديه حتى يحاذى بهما منكبيه ، فإذا أراد أن يركع رفع يديه حتى يحاذى بهما منكبيه ، ثم قال : « الله أكبر » فركع ثم اعتدل فلم يصوب رأسه ولم يقنع ووضع يديه على ركبتيه وقال : « سمع الله لمن حمده » ورفع يديه واعتدل حتى رجع كل عظم فى موضعه معتدلًا ، ثم هوى ساجدا وقال : « الله

(١) أخرجه مسلم [٢٣٤/٤٩٤] ، وأحمد فى المسند [٢٩٤،٢٨٣/٤] عن البراء بن عازب رضى الله تعالى عنه .
(٢) ذكر أبو داود فى المراسيل أن رسول الله ﷺ رأى رجلًا يصلى فى المسجد فسجد بجنبيه وقد اعتم على جبهته فحسر رسول الله ﷺ عن جبهته . =

أكبر » ثم جافى عضديه عن إبطه وفتح أصابع رجليه ثم ثنى رجله اليسرى وقعد عليها واعتدل ، حتى يرجع كل عظم فى موضعه معتدلًا » ، ثم هوى ساجدًا وقال : « الله أكبر » ثم ثنى رجله وقعد واعتدل ؛ حتى يرجع كل عظم فى موضعه ، ثم نهض فصنع فى الركعة الثانية مثل ذلك ، حتى إذا قام من السجدتين كبر ورفع يديه ؛ حتى يحاذى بهما منكبيه كما صنع حين افتتح الصلاة ، ثم صنع كذلك حتى إذا كانت الركعة التى تنقضى فيها الصلاة أخر رجله اليسرى وقعد على شقه متوركًا ثُم سلم » [1] .

وكان يقول فى سجوده : « سبحان ربى الأعلى »[2].

= وحديث أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ كان يسجد على كور عمامته . قال ابن القيم فى زاد المعاد [٢٣٢/١] : هو من رواية عبد الله بن محرر وهو متروك .
(١) سبق تخريجه .
(٢) أخرجه مسلم [٢٠٣/٧٧٢] ، والترمذى [٢٦٢] عن حذيفة رضى الله تعالى عنه .

وروى أنه كان يزيد عليها : « وبحمده » وربما قال : « اللهم إنى لك سجدت ، وبك آمنت ، ولك أسلمت ، سجد وجهى للذى خلقه وصوره ، وشق سمعه وبصره ، تبارك الله أحسن الخالقين » وكان يقول أيضًا : « سبحانك اللهم وبحمدك ، اللهم اغفر لى » وكان يقول : « سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت » .

وكان يقول : « سبوح قدوس رب الملائكة والروح » وكان يقول : « اللهم اغفر لى ذنبى كله دقه وجله وأوله وآخره ، وعلانيته وسره » وكان يقول : « اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » ، وكان يجعل سجوده مناسبًا لقيامه .

ثم يرفع رأسه قائلاً : « الله أكبر » غير رافع يديه [1] ، ثم

(١) أخرجه البخارى [٧٣٨] . عن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما .

يفرش رجله اليسرى ويجلس عليها وينصب اليمنى ويضع يديه على فخذيه [1] ، ثم يقول : « اللهم اغفر لى وارحمنى واجبرنى واهدنى وارزقنى » وفى لفظ : « وعافنى » بدل « واجبرنى » هذا حديث ابن عباس [2] . وقال حذيفة : كان يقول بين السجدتين : « رب اغفر لى » [3] والحديثان فى السنن .

وكان يطيل هذه الجلسة حتى يقول القائل : قد أوهم أو قد نسى [4] .

(١) رواه النسائى [٣٦/٣] ، وأبو داود [٩٥٧] ، وابن حبان [٤٨٥] وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [٨٤٤] عن وائل بن حجر رضى الله تعالى عنه .

(٢) رواه أبو داود [٨٥٠] ، والترمذى [٢٨٤] عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ، وحسنه الألبانى فى صحيح أبى داود [٧٥٦] .

(٣) رواه أبو داود [٨٧٤] ، وابن ماجه [٨٩٧] عن حذيفة رضى الله تعالى عنه ، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [٧١٤] .

(٤) أخرجه مسلم [١٩٦/٤٧٣] ، وأبو داود [٨٥٣] عن أنس رضى الله تعالى عنه .

ثم يكبر ويسجد غير رافع يديه ، ويصنع فى الثانية مثل ما صنع فى الأولى ، ثم يرفع رأسه مكبراً وينهض على صدور قدمَيه معتمدًا على ركبتيه وفخذيه (١) .

وقال مالك بن الحويرث : كان رسول الله ﷺ إذا كان فى وتر من صلاته لم ينهض حتى يستوى قاعدًا ، فهذه تسمى جلسة الاستراحة ، ولا ريب أنه ﷺ فعلها ولكن هل فعلها على أنها من سنن الصلاة وهيئاتها كالتجافى وغيره ، أو لحاجته إليها لما أسن وأخذه اللحم ؟ وهذا الثانى أظهر لوجهين :

أحدهما : أن فيه جمعًا بينه وبين حديث وائل بن حجر وأبى هريرة أنه كان ينهض على صدور قدميه .

والثانى : أن الصحابة الذين كانوا أحرص الناس على

(١) لم أجد دليله ، وهو مخالف لما أخرجه البخارى [٨٢٣] ، وأبو داود [٨٤٤] ، والترمذى [٢٨٧] عن مالك بن الحويرث رضى الله تعالى عنه أنه رأى النبى ﷺ يصلى ، فإذا كان فى وتر من صلاته لم ينهض حتى يستوى قاعداً .

مشاهدة أفعاله وهيئات صلاته كانوا ينهضون على صدور أقدامهم ، فكان عبد الله بن مسعود يقوم على صدور قدميه فى الصلاة ولا يجلس . رواه البيهقى عنه ، ورواه عن ابن عمر وابن عباس وابن الزبير وأبى سعيد الخدرى من رواية عطية العوفى عنهم ، وهو صحيح عن ابن مسعود ولم يكن يرفع يديه فى هذا القيام .

وكان إذا استتم قائمًا أخذ فى القراءة ولم يسكت وافتتح قراءته بالحمد لله رب العالمين .

فإذا جلس فى التشهد الأول جلس مفترشًا كما جلس بين السجدتين ، ويضع يده اليسرى على ركبته اليسرى واليمنى على فخذه اليمنى ، وأشار بإصبعه السبابة ووضع إبهامه على إصبعه الوسطى كهيئة الحلقة وجعل بصره إلى موضع إشارته (١) ،

(١) رواه أبو داود [٩٩٠] ، وابن حبان فى صحيحه [١٩٤٤] وحسنه الألبانى فى صحيح أبى داود [٨٧٤] عن عبد الله بن الزبير رضى الله تعالى عنه .

وكان يرفع إصبعه السبابة ويحنيها قليلًا يوحد بها ربه عز وجل .

وذكر أبو داود من حديث ابن عباس عنه ﷺ أنه قال : هكذا الإخلاص « يشير بإصبعه التى تلى الإبهام » ، « وهكذا الدعاء » فرفع يديه مدًّا حذو منكبيه ، « وهكذا الابتهال » فرفع يديه مدًّا . وقد روى موقوفًا .

ثم كان يقول : « التحيات للّه والصلوات والطيبات ، السلام عليك أيها النبى ورحمة اللّه وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد اللّه الصالحين ، أشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله » وكان يعلمه أصحابه كما يعلمهم القرآن(1) .

وكان أيضًا يقول : « التحيات المباركات الصلوات الطيبات للّه » هذا تشهد ابن عباس(2) .

(1) أخرجه البخارى [٦٣٢٨] ، ومسلم [٥٥/٤٠٢] عن ابن مسعود رضى اللّه تعالى عنه .

(2) أخرجه مسلم [٦٠/٤٠٣] ، وأبو داود [٩٧٤] عن ابن عباس رضى اللّه تعالى عنه .

والأول تشهد ابن مسعود وهو أكمل ؛ لأن تشهد ابن مسعود يتضمن جملًا متغايرة ، وتشهد ابن عباس جملة واحدة ، وأيضًا فإنه فى الصحيحين وفيه زيادة الواو ، وكان يعلمهم إياه كما يعلمهم القرآن .

وروى ابن عمر عنه : « التحيات للّه الصلوات الطيبات » وفيه أنواع أخرى كلها جائزة .

وكان يخفف هذه الجلسة ، حتى كأنه جالس على الرضف وهى : الحجارة المحماة . ثم يكبر وينهض ويصلى الثالثة والرابعة ويخففهما عن الأوليين ، وكان يقرأ فيهما بفاتحة الكتاب وربما زاد عليها أحياناً .

الصلاة وحكم تاركها [ص : ٨٨-٢٠٩] .

ooo

وكان يرفع إصبعه السبابة ويحنيها قليلًا يوحد بها ربه عز وجل .

وذكر أبو داود من حديث ابن عباس عنه ﷺ أنه قال : هكذا الإخلاص « يشير بإصبعه التى تلى الإبهام » ، « وهكذا الدعاء » فرفع يديه مدًّا حذو منكبيه ، « وهكذا الابتهال » فرفع يديه مدًّا . وقد روى موقوفًا .

ثم كان يقول : « التحيات للَّه والصلوات والطيبات ، السلام عليك أيها النبى ورحمة اللَّه وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد اللَّه الصالحين ، أشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله » وكان يعلمه أصحابه كما يعلمهم القرآن[1] .

وكان أيضًا يقول : « التحيات المباركات الصلوات الطيبات للَّه » هذا تشهد ابن عباس[2] .

(١) أخرجه البخارى [٦٣٢٨] ، ومسلم [٥٥/٤٠٢] عن ابن مسعود رضى اللَّه تعالى عنه .

(٢) أخرجه مسلم [٦٠/٤٠٣] ، وأبو داود [٩٧٤] عن ابن عباس رضى اللَّه تعالى عنه .

والأول تشهد ابن مسعود وهو أكمل ؛ لأن تشهد ابن مسعود يتضمن جملًا متغايرة ، وتشهد ابن عباس جملة واحدة ، وأيضًا فإنه فى الصحيحين وفيه زيادة الواو ، وكان يعلمهم إياه كما يعلمهم القرآن .

وروى ابن عمر عنه : « التحيات للَّه الصلوات الطيبات » وفيه أنواع أخرى كلها جائزة .

وكان يخفف هذه الجلسة ، حتى كأنه جالس على الرضف وهى : الحجارة المحماة . ثم يكبر وينهض ويصلى الثالثة والرابعة ويخففهما عن الأولين ، وكان يقرأ فيهما بفاتحة الكتاب وربما زاد عليها أحيانًا .

الصلاة وحكم تاركها [ص : ٨٨-٢٠٩] .

○○○

يقول الحق عز وجل : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴾ [البقرة : ١٥٧] .

إن الغاية النهائية فى كل تكليف إيمانى وفى كل عمل أن تنال رضوان الله فى الآخرة ، إياك أن يشغلك عن صلوات الله وتحياته وبركاته أى شئ حتى ولو كان انتصاراً لعقيدة ؛ لأن انتصار العقيدة هو وسيلة ينال بها المؤمن صلوات الله ورحمته ، وكل شئ عدا ذلك إنما هو وسيلة للوصول إلى هذا الغاية . إن غاية الغايات أن يفوز المؤمن برضا من أراد له الحياة وأن تكون له الصلوات والرحمة من خالقه سبحانه وتعالى . والصلاة كما نعرف فى اللغة هى الدعاء . وللناس صلاة وللملائكة صلاة ، ولله تعالى صلاة ، ولنقرأ قول الحق : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ٤٣ تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا ٤٤ ﴾ [الأحزاب] .

إن الحق سبحانه يتعهد عباده برحمته ولطفه ، وملائكته تطلب للصالحين من العباد المغفرة والهداية ، وبهذا يخرج الحق المؤمنين من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، ويتلقاهم الله بأمن وسلام ، ويجزيهم الخير كله ، ونحن نعرف أن الخلق كلهم - الكافر منهم والمؤمن - إنما يعيشون برحمة الله فى الأرض . إننا نأخذ بأسباب الله التى أرادها الله رحمة منه فى الأرض . المؤمن يأخذ نعم الله المادية ومعها البركة والاطمئنان ، والكافر يأخذ من نعيم الدنيا على قدر بذله فيها من جهد ، لكنه لا يأخذ البركة والاطمئنان ، وهما النعمة الكبرى من الله تعالى لعباده .

إن الصلاة من الله عطاء البركة والرحمة ، والصلاة من الملائكة استغفار ، والصلاة من المؤمنين دعاء ، وصلاة المؤمنين على رسول الله ﷺ هى دعوة لرسوله بالخير والبركة والرحمة ، وهو فى نفس الوقت دعاء لأنفسهم ؛ لأن كل منزلة ينالها رسول الله ﷺ تعود على أمته ، وإن كل صلاة من المؤمن على رسول الله يجازى عليها من الله بعشرة ، ثم إن رسول الله هو الذى سيشفع لنا عند الله يوم القيامة ولذلك فكل

إعلاء لدرجته ﷺ إعلاء لأمته ، وكل خير يناله رسول الله ﷺ هو خير لنا جميعاً لذلك فعندما نصلى على النبى فإننا ندعو له وندعو لأنفسنا ، لأن المؤمن إذا صلى على رسول الله مرة واحدة فإن الله يصلى عليه عشر مرات (١) ، وهكذا يكون المؤمنون فى المرتبة التى يتلقون فيها صلوات ربهم ورحمته ، ويكونون هم المهتدين ، أى : أنهم هم الذين التزموا الطريق الموصل إلى الغاية . والغاية هى أن ينالوا صلوات من ربهم ورحمة فيتمتع المؤمن بنعم الله بأسباب الله فى الدنيا ، ويتمتع فى الآخرة بنعم الله جزاءً صافياً من الله .

○○○

---

(١) روى أبو داود [١٥٣٠] عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول ﷺ : « من صلى على واحدة صلى الله عليه عشراً » . وصححه الألبانى .

وعندما نبدأ أى عمل نبدؤه « بسم الله الرحمن الرحيم » وانظر إلى رحمة الله بالخلق . فالله سبحانه وتعالى يرفع عن العاصى الحرج فى أنه يقبل على نعم الله باسم الله الذى عصاه ، وحتى لا يستحى من عصى الله أن يبدأ أى عمل باسم الله وأن يستعينه . نقول : إن الحق سبحانه وتعالى جعلك تقبل على عملك وأنت واثق من الاستجابة ؛ لأن الله هو الرحمن الرحيم فإذا قلت : بسم الله الرحمن الرحيم تعلقت برحمة الله فأعانك على ما تفعل .

والرحمة والرحمٰن والرحيم : مشتق منها الرحم الذى هو مكان الجنين فى بطن أمه ، هذا المكان الذى يأتيه فيه الرزق بلا حول ولا قوة ، ويجد فيه كل ما يحتاج إليه نموه مُيَسّراً رزقا من اللّه سبحانه وتعالى بلا تعب ، ولا مقابل ، انظر إلى حنو الأم على ابنها وحنانها عليه (١) ، وتجاوزها عن سيئاته وفرحتها بعودته إليها .

---

(١) عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ – رَضِيَ اللَّهُ تعالى نْهُ – قالَ : قَدِمَ عَلَى النَّبِيّ ﷺ سَبْىٌ ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْىِ تَحْلُبُ ثَدْيَها تَسْقِى =

وفى الحديث القدسى : « أنا الرَّحمٰن ، خَلَقْتُ الرَّحِم وشَقَقتُ لها اسمًا من اسمى ، فَمَن وَصَلَها وَصَلْته ، وَمَنْ قَطَعَها بَتَتُّه » (1) .

وفى قوله تعالى : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ هناك ثلاثة أسماء لله تعالى قد وردت فى « البسملة » ،

= إذا وَجَدَتْ صَبِيًّا فى السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِها وَأَرْضَعَتْهُ ، فَقَالَ لَنا النَّبِيُّ ﷺ : « أَتَرَوْنَ هذِهِ طارِحَةً وَلَدَها فى النَّار ؟ » . قُلْنا : لا ، وَهِيَ تَقْدِرُ عَلى أَنْ لا تَطْرَحَهُ ، فَقال : « اللَّهُ أَرْحَمُ بِعِبادِهِ مِنْ هذِهِ بِوَلَدِها » .

أخرجه البخارى [٥٩٩٩] واللفظ له ، ومسلم [٢٢/٢٧٥٤] .

(1) رواه أحمد فى المسند [١٩٤/١] عن عبد الرحمن بن عوف ، رضى الله تعالى عنه . وصححه الشيخ شاكر برقم [١٦٨٦] ، والترمذى [١٩٠٧] ، وقال : حديث صحيح ، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى [١٥٥٧] ، . وأخرجه البخارى [٤٨٣٠، ٥٩٨٧، ٥٩٨٨، ٥٩٨٩، ٧٥٠٢] . ومسلم [١٦/٢٥٥٤] عن أبى هريرة ، رضى الله تعالى عنه ، بألفاظ متقاربة .

وفى : « فاتحة الكتاب » ، وهى : ﴿ اللَّهِ ﴾ ، و﴿ الرَّحْمَٰنِ ﴾ و ﴿ الرَّحِيمِ ﴾ .

ونحن نعلم أنه : ليس هناك تكرار فى القرآن الكريم ؛ وإن تكرر اللفظ يكون معناه فى كل مرة مختلفاً عن معناه فى المرة السابقة ؛ لأن المتكلِّمَ هو الله سبحانه وتعالى ، ولذلك تجد دائماً اللفظ فى مكانه الصحيح ، وفى معناه الصحيح .

وهنـاك فـرق بين ورود اسم الله تعالى فى البسملة ، وفى الفاتحة ؛ ففى البسملة ، تقول : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ الذى نستعين به عـلى ما لا قـدرة لنا عليـه ؛ لأن الله هو الذى سخر كل ما فى هذا الكون ، وجعـله يخـدمنا ، وفى الفاتحة : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ فإن لفظ الجلالة إنما جاء هنا لنحمد الله على ما فعل لنا .

فكأن ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ فى البسملة : طلب العون من الله بكل كمال صفاته ، و ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ فى الفاتحة : تقديم الشكر لله بكل كمال صفاته .

كما أن ﴿ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ فى البسملة لها معنى غير ﴿ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ فى الفاتحة ؛ ففى البسملة تلفتنا إلى رحمة اللّه سبحانه وتعالى وغفرانه ؛ حتى لا نستحى ، ولا نهاب أن نستعين به سبحانه إن كنا قد فعلنا معصية .

فاللّه سبحانه وتعالى يريد منا أن نستعين باسمه دائماً فى كل أعمالنا ، فإذا سقط واحد منا فى معصية ، فلا يقول : كيف أستعين باللّه وقد عصيته ؟! نقول له : ادخل عليه سبحانه وتعالى من باب الرحمة ، فيغفر لك ، واستعن به يُعِنْكَ .

ولولا رحمة اللّه التى سبقت غضبه ، ما بقى للناس نعمة ، وما عاش أحد على ظهر الأرض ؛ يقول جل جلاله : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [النحل] .

فالإنسان خُلِقَ ضعيفًا ، وخُلِقَ هلوعًا ، والرسول ﷺ يقول : « لن يُدخل أحدًا منكم عمله الجنة » ، قالوا : ولا أنت

يا رسول اللّه ؟ قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدنى اللّه منه بفضل ورحمة »[١] .

فذنوب الإنسان فى الدنيا كثيرة ، إذا حكم فقد يظلم ، وإذا ظن فقد يسىء ، وإذا تحدث فقد يكذب ، وإذا شهد فقد يبتعد عن الحق ، وإذا تكلم فقد يغتاب .

هذه ذنوب نرتكبها بدرجات متفاوتة ، ولا يمكن لأحد منا أن ينسب الكمال لنفسه ، حتى الذين يبذلون أقصى جهدهم فى الطاعة لا يصلون إلى درجة الكمال ، فالكمال للّه وحده . ورسول اللّه ﷺ يقول : « كُلُّ بَنى آدم خَطَّاء وخَيْرُ الخَطَّائين التَّوَّابُون »[٢] .

---

(١) أخرجه البخارى [٦٤٦٢] ، ومسلم [٧٥/٢٨١٦] واللفظ له ، عن أبى هريرة ، رضى اللّه تعالى عنه .

(٢) أخرجه أحمد فى المسند [١٩٨/٣] والترمذى [٢٤٩٩] ، وقال : حديث غريب ، وابن ماجه [٤٢٥١] عن أنس بن مالك رضى اللّه تعالى عنه واللفظ له ، وقال الألبانى فى صحيح الترمذى [٢٠٢٩] : حسن .

ولما كان الإنسان ظلوماً جهولاً [1] ، أراد الحق سبحانه وتعالى أن يعلمه أن يبدأ كل عمل باسم الله ، فعلمنا أن نقول : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ؛ لكى نعرف أن الباب مفتوح للاستعانة بالله ، وأن المعصية لا تمنعنا من الاستعانة فى كل عمل باسم الله ؛ لأنه سبحانه ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ، فيكون الله قد أزال وحشتك من المعصية فى الاستعانة به سبحانه وتعالى .

و ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ فى الفاتحة مقترنة برب العالمين ، الذى أوجدك من عدم ، وأمدك بنعم لا تعد ولا تحصى ، أنت تحمده على هذه النعم التى أخذتها برحمة الله سبحانه وتعالى فى ربوبيته ، والله سبحانه وتعالى ربٌّ للمؤمن والكافر ، وهو الذى خلقهم ؛ لذلك فإنه يعطيهم من النعم برحمته ، وليس بما يستحقون ، فالشمس تشرق على المؤمن والكافر ، ولا تحجب أشعتها عن الكافر وتعطيها للمؤمن فقط ، والمطر ينزل على من

---

(1) قال تعالى : ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ . [الأحزاب : ٧٢] .

يعبدون الله ، وعلى من يعبدون أوثاناً من دون الله ، والهواء جعله الله لمن قال : لا إله إلا الله ومن جحد بها .

إذن .. كل النعم التى هى من عطاء الربوبية هى فى الدنيا لخلق الله جميعاً ، وهذه رحمة منه سبحانه ؛ لأنه هو ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ رب الجميع ، من أطاعه ومن عصاه .

وقوله تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ الله محمود لذاته ، ومحمود لصفاته ، ومحمود لنعمه ، ومحمود لرحمته ، ومحمود لمنهجه ، ومحمود لقضائه . فالله تعالى محمود قبل أن يخلق من يحمده ، ومن رحمة الله سبحانه وتعالى أنه جعل الثناء عليه فى كلمتين اثنتين هما : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ .

والعجيب أنك حين تشكر بشراً على جميل فعله تظل ساعات وساعات ، تُعد كلمات الشكر والثناء ، وتحذف وتضيف ، وتأخذ رأى الناس ، حتى تصل إلى قصيدة أو خطاب ملىء بالثناء والشكر . ولكن الله - سبحانه وتعالى ، جلت قدرته ، وتعالت عظمته الذى نعمه لا تُعد ولا تُحصى - علمنا أن نشكره فى كلمتين اثنتين هما : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ .

المؤمنون والمؤمنات الذين هم أولياء بعض الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة والذين يؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله هؤلاء سيرحمهم الله . ما هو الأبلغ أن يقال : « أولئك يرحمهم الله » أو ﴿ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ﴾ [التوبة : ٧١] الأبلغ أن يقال ما قاله رب العزة سبحانه : ﴿ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ﴾ ؛ لأن السببية تعطى استطالة زمن ، وبذلك سيكون أمل المؤمن دائماً فى رحمة الله .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى عن المؤمنين الذين يعملون الصالحات : ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ [مريم: ٩٦] أى : أن الود سيكون مستمراً حتى لمن استمع إلى هذه الآية ثم استشهد . والله سبحانه وتعالى قال لرسوله ﷺ : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ [الضحى : ٥] ولم يقل : يعطيك ربك ؛ لأن العطاء مستمر. وأنت عندما تتهدد أحداً لا تقول له: « أنا أنتقم منك » بل تقول له : « سأنتقم منك » يعنى : الانتقام

ومن رحمة الله سبحانه وتعالى أنه علمنا صيغة الحمد ، فلو أنه تركنا دون أن يعلمنا إياها ، لكان من الصعب على البشر أن يجدوا الصيغة المناسبة ليحمدوا الله على هذا الكمال الإلهي ، فمهما أوتى الناس من بلاغة وقدرة على التعبير ، فهم عاجزون عن أن يصلوا إلى صيغة الحمد التى تليق بجلال المنعم ، فكيف نحمد الله والعقل عاجز أن يدرك قدرته أو يحصى نعمه أو يحيط برحمته ؟! وفى الحديث : « لا أُحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » (1) .

○○○

(1) جزء من حديث أخرجه مسلم [٢٢٢/٤٨٦] ، وأبو داود [٨٧٩] ، والنسائى فى المجتبى [٢١٠/٢] ، وابن ماجه [٣٨٤١] عن عائشة رضى الله تعالى عنها .

المؤمنون والمؤمنات الذين هم أولياء بعض الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة والذين يؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله هؤلاء سيرحمهم الله . ما هو الأبلغ أن يقال : « أولئك يرحمهم الله » أو ﴿ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾ [التوبة : ٧١] الأبلغ أن يقال ما قاله رب العزة سبحانه : ﴿ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾ ؛ لأن السببية تعطى استطالة زمن ، وبذلك سيكون أمل المؤمن دائماً فى رحمة الله . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى عن المؤمنين الذين يعملون الصالحات : ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ [مريم: ٩٦] أى : أن الود سيكون مستمراً حتى لمن استمع إلى هذه الآية ثم استشهد . والله سبحانه وتعالى قال لرسوله ﷺ : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾ [الضحى : ٥] ولم يقل : يعطيك ربك ؛ لأن العطاء مستمر. وأنت عندما تتهدد أحداً لا تقول له: « أنا أنتقم منك » بل تقول له : « سأنتقم منك » يعنى : الانتقام

مستمر مع الزمن . فقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ﴾ تعطى أن صفة الرحمة فى الحق جل جلاله أعلى من صفة الرحمة فى المخلوق . ذلك لأن التراحم من الحق جل جلاله أعلى من صفة الرحمة فى المخلوق ، فالتراحم من الخلق تراحم على قدر الأسباب ، وإنما الرحمة من الحق سبحانه وتعالى هى من صفات الكمال التى لا تتناهى ولا تنتهى . والرحمة ألا يقع داء ، والشفاء أن يوجد داء فيشفى . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ ﴾ [الإسراء : ٨٢] فالاثنان يؤديان إلى سلامة المجتمع من الأمراض الاجتماعية التى تشقى الإنسان ، ولكن الشفاء سلامة فى أول الأمر والرحمة ممتدة لا يأتى بعدها داء أبداً .

ooo

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ۝١٥٦ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ .. ۝١٥٧ ﴾ [الأعراف] . إن الحق سبحانه وتعالى يلفت موسى عليه السلام ويلفتنا جميعاً إلى طلاقة قدرته ، فطلاقة قدرة الله بلا قيود وبلا حدود ، ولذلك فعذابه يصيب به من يشاء ، فليس الذنب موجباً للعذاب إذا تاب المذنب وقبل الله توبته وغفر له ، ولذلك فإن الله يتوب على المذنبين والعاصين الذين تابوا ورجعوا إلى الطريق المستقيم ، وقوله تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ أى : رحمتى فى الدنيا أعطيها للطائع والعاصى ، والمؤمن وغير المؤمن ، ولكنها خالصة يوم القيامة للمؤمنين ، وهنا قال بعض أحبار اليهود : « ما دامت رحمة الله قد وسعت كل شئ ، فإنها تسعنا لأننا شئ » نقول : « نعم رحمة الدنيا التى وسعت كل شئ تسعكم » .

ثم قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ كلمة : ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا ﴾ أثارت جدلاً كثيراً فالسين هنا دلت على زمن قادم ، وإذا كانت رحمة الله وسعت كل شئ فى الدنيا وسيكتبها دليل على أن ذلك فى الآخرة وطبعا الحق كتبها بالفعل وانتهى ، ولكنها ما زالت غيباً بالنسبة لنا. نعود إلى أحبار اليهود قالوا : ما دامت رحمة الله وسعت كل شئ وسيكتبها للذين يتقون فنحن متقون . إذن فعندنا كم حالة ؟ الحالة الأولى : أنهم قالوا : نحن شئ فالرحمة تسعنا ، والرد : الرحمة تسعكم فى الدنيا ، فالكل فيها ، وفى قوله تعالى : ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ قالوا : نحن متقون فى منهج موسى ، نقول لهم لو كنتم متقين فى منهج موسى لآمنتم بمحمد الذى تجدونه مكتوباً عندكم فى التوراة ؛ لأنه من تعاليم موسى أن تؤمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام .

ooo

الهدى والرحمة

يقول الحق سبحانه : ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ [الأنعام : ١٥٤]

ما هو الهدى وما هى الرحمة ؟ الهدى : هو الدلالة على الغاية ، ولماذا جعل الله لنا دلالة على طريق الإيمان أو على الغاية ؟ لو أن المسألة سارت بفطرة الإيمان فآدم تلقى عن ربه فبلغ أبناءه ، وأبناؤه أبلغوا أبناءهم ، وهكذا جيل بعد جيل ما كانت هناك حاجة للرسالات السماوية ، ولكن مع الزمن بدأ الطريق الإيمانى يقل ، فهذا خالف وهذا نسى ، وهذا بدل وغير ليحقق نفعاً ذاتياً . وكان على كل واحد منا كما يعلم أولاده كيف يأكلون وكيف يشربون أن يعلمهم أيضاً أمور القيم . ولكن الناس حرصت على الدنيا وغفلت عن منهج الله فالحق سبحانه وتعالى - رحمة بغفلتنا ونسياننا وتبديلنا لأحكامه - أرسل الرسل هدى جديداً ليذكرنا بمنهجه ، ويصحح لنا ما قد حرف ويظهر لنا ما قد أخفى حتى لا تكون لنا حجة يوم القيامة فى أن أجدادنا وآباءنا هم الذين بدلوا وحرفوا ونحن كنا ذرية من بعدهم فاتبعنا ما بلغوه لنا فكيف

يحاسبنا الله بذنوب أجدادنا وآبائنا ، وفى ذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٣] (١) .

(١) روى أبو داود [٤٧٠٣] وصححه الألبانى عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه سئل عن هذه الآية ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] فقال : سمعت رسول الله ﷺ سئل عنها فقال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل خلق آدم ، ثم مسح ظهره بيمينه ، فاستخرج منه ذرية ، فقال : خلقت هؤلاء للجنة ، وبعمل أهل الجنة يعملون » فقال رجل : يا رسول الله ، ففيم العمل ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار » .

وجاء فى تفسير الوسيط [٢/٤٢٤-٤٢٦] وعن ابن عباس عن النبى ﷺ - أخذ الله عز وجل الميثاق من ظهر آدم بنعمان يعنى عرفة ، فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرها بين يديه ثم كلمهم قبلاً معاينة فقال : ألست بربكم ؟ قالوا : =

= ﴿ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴾ تلاها إلى قوله : ﴿ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ .

وعنه رضى الله تعالى عنه : « لما خلق الله آدم مسح ظهره فأخرج من ظهره كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة ، فقال : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ، فنودى يومئذ أن القلم جف بما هو كائن إلى يوم القيامة » .

قال المفسرون : وهذه الآية تذكير بما أخذ على جميع المكلفين من الميثاق واحتجاج عليهم لئلا يقول الكفار إنا عن هذا الميثاق غافلين لم نحفظه ولم نذكره ، ونسيانهم لا يسقط الاحتجاج بعد أن أخبر بذلك على لسان صاحب المعجزة ، وإذا صح ذلك يقول الصادق قام فى النفوس مقام الذكر ، فالاحتجاج به قائم ، ثم قطع عذر الكفار بقوله : ﴿ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ ﴾ ، لا يستطيع أحد من الذرية الكافرة أن يقول يوم القيامة : إنما أشرك آباؤنا من قلنا ، ونقضوا العهد ﴿ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ فاقتدينا بهم ﴿ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ أفتعذبنا بما فعل المشركون المكذبون بالتوحيد ؟ فلا يمكنهم أن يحتجوا بمثل هذا الكلام بعد تذكير الله بأخذ الميثاق بالتوحيد على كل واحد من الذرية .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٤] لماذا قال الحق سبحانه وتعالى ﴿ لَعَلَّهُمْ ﴾ ؛ لأنه إذا كان عدم اتباعهم لتشريعات الله إنما عن عدم علم فستتضح فى ذهنهم الصورة ، وأنهم ملاقو الله وما دامت اتضحت فى ذهنهم الصورة ، فإنهم سيحسبون لذلك ألف حساب . تماماً كالطالب الذى يعرف أنه سيذهب إلى الامتحان ، يكون هذا فى باله كل لحظة فلا ينام ويجتهد فى المذاكرة ، أما الذى ليس فى ذهنه الامتحان وليس متنبهاً له ، فسيقضى وقته فى اللعب والنوم ؛ إذ إن الغايات تجعل الإنسان يقبل على الوسائل ، وفى ذلك يقول الشاعر :

ألا من يرينى غايتى قبل مذهبى ومن أين والغايات قبل المذاهب

نقول له : « ألا من يرينى غايتى قبل مذهبى » كلام صحيح أما أن « الغايات قبل المذاهب » فالله شرع الغايات أولاً ، وبعد ذلك جعل لها السبيل .

إذن .. فاستخدام قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ لَعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ ﴾ [الأنعام : ١٥٤] أى : لعل هذه الرسالات السماوية تجعلهم يوقنون بلقاء ربهم ، فيعملون لهذا اللقاء ألف حساب .

الاختلاف والرحمة

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ [هود : ١١٨] والناس هم : بنو آدم . وقوله تبارك وتعالى: ﴿ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ أى : أمة مقهورة مثل باقى أجناس الأرض من الجماد والحيوان والنبات. قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [هود] أى سيظلون مختلفين ؛ لأن لهم الاختيار لن يسلبه الله منهم ، وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ هل خلقهم للرحمة أو للاختلاف ؟ قلنا : إن ساعة ترى اسم إشارة أو ضميراً عائداً على كلام متقدم ننظر ماذا تقدم ؟ الذى تقدم هو : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ ....﴿١١٩﴾ ﴾ أى للاختلاف والرحمة للاثنين كيف ؟ الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن خلق الإنسان قال : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

ومعنى العبادة : طاعة الله فى افعل ولا تفعل ، إذن فمراد الله الشرعى من الخلق هو للعبادة ، ولكن هناك مراد كونى لله سبحانه وتعالى وهو أن يكون الإنسان مختاراً وحدث من الاختيار اختلاف ، والاختلاف ناشئ عن تعدد الأهواء ، فلو أن لنا هوى واحداً كنا لا نختلف ، ولكن نحن نختلف ، لأن لكل واحد منا غرضاً ، والله تبارك وتعالى يحذرنا من ذلك ، واقرأ قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ [المؤمنون : ٧١] فلو فعل كل منا ما يشتهيه تتصادم الأهواء ، ويفسد العالم . إذن فالعالم لا يستقيم إلا إذا كان حلقته الاختيارية على هوى واحد ، ولذلك قال رسول الله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به »[1] فاتباع المنهج وعدم إخضاعه للهوى هو الذى يحفظ حركة الحياة ، على أننا يجب أن نلاحظ أن الأشياء التى بها حركة الحياة دون التكليف فيها اختيار ،

---

(١) قال الحافظ فى الفتح : أخرجه الحسن بن سفيان وغيره ورجاله ثقات ؛ وقد صححه النووى فى آخر الأربعين .

فالعالم لا يستقيم إذا كنا جميعاً صنفاً مكرراً ؛ إذ لو كنا - كلنا أطباء أو مهندسين أو شعراء فمن الذى يفلح الأرض ؟ ومن الذى يعد الطعام ؟ ومن الذى يصنع لنا ما نحتاج إليه ؟

إذن .. فحركة الحياة لابد أن يكون فيها اختلاف باختلاف مواهب ، واختلاف مواقع ؛ لأن الأمر الذى ليس لى فيه مواهب فأنا محتاج لمن له فيه موهبة ، وغيرى محتاج إلى فيما أنا فيه موهوب ، والعالم ارتبط كله بعضه ارتباط حاجة وضرورة ، والاختلاف فى حركة الحياة على هذا النحو هدف من أهداف الشرع ليستقيم هذا الكون .

واقرأ قوله سبحانه وتعالى: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾ [الزخرف: ٣٢] فكأن رفع الدرجات ليكون كل منا مسخراً لخدمة الآخر فى كل شئون الحياة ، ولكن الناس لا تنظر إلا للغنى والفقير فقط وهذه نظرة حمقاء ، فالله سبحانه وتعالى لم يبين لنا من هو البعض المرفوع عليه ، ومن هو البعض المرفوع ، فكل إنسان فى جهته مرفوع عليك فيما لا تحسنه ، وأنت مرفوع على الناس فى موهبتك .

إذن .. فلابد أن نختلف من أجل المجتمع ، ولذلك فإنك تجد خواطر الناس تختلف ، كما تظهر نتيجة الثانوية العامة مثلاً ، كل إنسان يريد أن يتوجه وجهة مختلفة ، هذا يريد الطب ، هذا يريد الهندسة وذاك يريد أن يتوجه وجهة مختلفة . وذلك يريد التجارة كل حسب موهبته ، وكل إنسان معد إعداداً من خالقه ليتفوق فى موهبته ويفعل أشياء لا يستطيع أن يتقنها غيره ، فهناك من يتقن نظافة الطريق ومن يتقن حمل الأثقال « عتال مثلا » ومن يهوى أن يعمل سائقاً ، فحركة الحياة محتاجة لكل هذه المواهب ، والإنسان فى مواهبه متكامل ، أى مجموع المواهب عند أحدنا يساوى المجموع عند آخر . فمن أعطاه الله درجة عالية فى التجارة مثلاً لا يستطيع أن يصنع شيئاً ، والصانع إذا تاجر أفلس ، لو أنك أعطيت درجات بحيث إن مجموع الإنسان يساوى ١٠/١ فإنك تجد أن درجاتنا جميعاً ١٠/١٠ ولكن هذا يأخذ فى العلم ١٠/٧ وباقى الدرجات فى المواهب الأخرى ، وهذا يأخذ ١٠/٧ وباقى الدرجات فى المواهب الأخرى ، وهذا يأخذ فى حياكة

الثياب ١٠/٧ ومجموع كل منها فى النهاية ١٠/١٠ فالإنسان الثرى قد تتعطل به السيارة ، فيذهب إلى محل ميكانيكى مرفوعاً عليه يقول له : أنا مشغول ، فيقول له راجعنى بعد يومين أو ثلاثة ، وهذا الذى يرجو ويرجو ، وتوزيع المواهب فى الكون يجعل الكون يعتدل ، فلا أحد يأخذه الغرور بما هو متفوق فيه ؛ لأنه سيجد غيره متفوقاً عليه فى أشياء كثيرة ، والله سبحانه وتعالى لا يميز أحداً على أحد ، فكلنا عبيده وهو ليس له صاحبة ولا ولد ، واختلاف المواهب بين الناس فى الكون ليس تمييزاً بين الناس ولكنه تكامل .

وكنا قد تحدثنا عن السباك الذى يصبح سيد الموقف بالنسبة لسكان قصر كبير ملأته مياه المجارى . الله تبارك وتعالى حين يقول : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ [هود : ١١٨] لا يعنى أنهم مختلفون فى حياتهم فقط ، بل مختلفون فى المنهج ، مختلفون فى الإيمان والكفر ، مختلفون فى الطاعة والمعصية . والله تبارك وتعالى إذا لم يرد الكفر ما وجد كفر فى كونه ، ولكن الكفر لابد أن يوجد ليبين لك حلاوة الإيمان ، كما أن الفساد

لابد أن يوجد ليبين لك جمال الصراط المستقيم ، ولابد أن تذوق نار الشر لتعرف حلاوة الخير . ولقد قلنا : إن الكفر يدعو للإيمان كما أن الألم رسول العافية ؛ لأنه ينبهك إلى المرض ، فلولا الألم لظل المرض يأكل جسدك . إذن فالألم هو داعى العافية وكل شئ فى الكون له مهمة ، ومن الرحمة أن كل شئ فى الكون يؤدى مهمته ، والاختلاف فى المواهب بين الناس هو عين الوفاق . ولنفترض أننى اعتدت أن آكل صدر دجاجة ، وأنت اعتدت أن تأكل وركها ، هذا خلاف فى ظاهره ، ولكنه وفاق فى باطنه ؛ لأن الدجاجة ستكفينا ولن نختلف ، ولو أننا اتفقنا فى أشياء كثيرة لحدث تزاحم عليها ، والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ...۝ ﴾ وإذا سألنا إنسانٌ هل الخلف للاختلاف أم الخلف للرحمة ؟ نقول : اختلاف المواهب رحمة بالخلق .

ooo

من رحمة الله أن جعل الرسول من البشر

والله سبحانه وتعالى خلق للإنسان السموات والأرض وما فيهن ، وجعل كل هذه النعم فى خدمة الإنسان يتمتع بها قبل أن يكلفه الله بتكاليف الإيمان ، إذن فالله سبحانه وتعالى يريد الخير والسعادة لخلقه من البشر ، والآية الكريمة تقول : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ [التوبة : ١٢٨] أى أن الرسول الذى جاء لم يأت من جنس آخر كالملائكة مثلاً ، ولكنه بشر رسول ، وما دام الرسول بشراً فإذا قال لكم : افعلوا كذا فإنه سيكون أسوة لكم ، أى أول من يفعل ، وما دام الرسول بشراً وقد فعل يكون التكليف فى قدرة البشر أن يفعلوه ، ولذلك كان من غباء الكافرين أن جعلوا بشرية الرسول سببا لعدم الإيمان مصداقاً لقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء : ٩٤] .

ثم يفند الحق سبحانه وتعالى حجتهم بأنهم كانوا يريدون ملكاً رسولاً فيقول جل جلاله : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا ﴾ [الأنعام : ٩] أى أن الحق سبحانه وتعالى لو أرسل رسولاً من الملائكة فإن الناس لن تراه ؛ لأننا لا نرى الملائكة ، ولذلك لابد أن يتشكل فى صورة إنسان بشر حتى يمكنه أن يدعو البشر للإيمان ، فتكون نفس المشكلة قائمة فى أنكم سترونه بشراً والملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . فإذا جاء الرسول الملك ليعلم الناس الدين قالوا : أنت مخلوق على الطاعة ليس لك شهوات ، ونحن مخلوقون على الطاعة والمعصية ، ولنا شهوات نأكل الطعام ونتناسل ، إذن فنحن لا نستطيع أن نقتدى بك لاختلاف طبيعة الخلق ، لقد جئتنا بما لا نقدر على تحمله .

إذن فمن رحمة الله بخلقه أن جاءهم برسول بشر من أنفسهم ، وفى هذه الحالة تكونون أنتم أول أذن تستمع لدعوته ، فتكون معجزة القرآن بلسانكم . إذن فالرحمة الأولى : أنه بشر والرحمة الثانية أنه يأتى بالدعوة بلسانكم والرحمة الثالثة أنه من

قريش ، القبيلة التى لها قرابات فى كل مكان ، والرحمة الرابعة : أنه نشأ بينكم تعرفون سلوكه وأمانته ، وأنه لم يكذب على بشر قط فهل يكذب على الله ؟ إنه رسول إذا قستموه بكل مقاييس البشرية تجدونه أفضلكم فى كل خصاله ، ولذلك حينما جاء رسول الله ﷺ بدعوة من الله هل انتظرت خديجة رضى الله عنها أن يأتى لها محمد بمعجزة تثبت صدق بلاغه عن الله ؟ هل انتظر أبو بكر رضى الله عنه أن يأتى له محمد بمعجزة تثبت صدق بلاغه عن الله ؟ أبداً لم ينتظرا ؛ لأنهما أخذا المعجزة من تاريخ رسول الله عليه الصلاة والسلام وأمانته وصدقه فيما يقول ، ولذلك عندما قال لهما : إنه رسول الله صدقاه على الفور ؛ لأنه لم يكذب قط . فكيف يكذب على الله ؟

إن خديجة رضى الله تعالى عنها حينما أخبرها رسول الله ﷺ بما رأى فى الغار – وخديجة كانت ناضجة الفكر ناضجة التكوين – قالت : والله لا يخزيك الله أبداً وصدقته . ولقد اختار الله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ أن يتزوج خديجة رضى الله تعالى عنها وهو فى سن الخامسة والعشرين ، وهى فى سن

الأربعين ، مع أن المألوف أن الانسان يحب أن يتزوج بمن هى أصغر منه ، ولكن هدف الزواج لم يكن مجرد متعة ، فلم يكن زواجاً عاديًا ، بل كان زواجا أُعد بقدر الله ليكون سكينة لرسوله عليه الصلاة والسلام فى الفترة الانتقالية التى سيمر بها من بشرية عادية إلى بشرية تتلقى الوحى من السماء .

هذا التغير الهائل كان رسول الله ﷺ محتاجاً فيه إلى قلب أم ، وصدر أم ، وتفهم أم ، ووعى أم ، تستطيع أن تعالج الموقف بحكمة السنوات ، والنضوج العقلى الذى كان لازماً خلال هذه المرحلة .

ولو كانت خديجة فتاة صغيرة طائشة لهربت من أول يوم عاد فيه رسول الله ﷺ من الغار وهو يرتجف ، لهربت أو اتهمته اتهامات شتى ؛ ذلك أن عقلها لم يكن فى هذه الحالة يمكن أن يستوعب تلك التجربة الهائلة التى يمر بها أشرف خلق الله من البشرية العادية إلى البشرية التى تختلط بالملائكة ، وتتلقى عن الله بواسطة الملك ، ولذلك عندما قال لها رسول الله ﷺ بعد أن رأى جبريل فى الغار : إنى أخاف أن يكون الذى يأتينى رقيب من الجن . قالت : إنك لتصل الرحم

وتكسب المعدم وتعين على نوائب الحق ، والله لا يخزيك الله أبداً . وكان لابد لكى تقول خديجة هذا الكلام وتكون صدراً حنوناً لرسول الله ﷺ أن تكون ناضجة العقل والفكر قد صقلتها السنون ، تملك العقل الواعى الذى يستطيع أن يميز وأن يختار ، لا يكون فيها طيش شباب ، ولا رعونة فتاة صغيرة قد تهزها الأحداث فتجعلها تنهار تماماً فى هذه الفترة الحرجة من حياة رسول الله ﷺ وكان يتعين أيضاً أن يكون هذا هو رأى قريش وأهل مكة ، وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ... ﴾ [الفتح : ٢٩] فمحمد : مبتدأ ورسول الله : خبر محمد ، ابتداءً كان فيكم الصادق الأمين الذى تربى على عين الله وأراد الله أن يحفظه فيكم صغيراً وكبيراً حتى قيل : إنه كلما هم بعمل كحمل أحجار الكعبة عند البناء مثل أقرانه وكانت تظهر عوراتهم عند رفع الثياب ، كان يأتى لمحمد صوت ينبهه إلى ذلك فيقول : يا محمد : عورتك عورتك ، وكانت فيه تلك الصفات التى عددتها سيدتنا خديجة ، وهذا كما قلنا ابتداء ؛ لذا كان يتعين أن تصدقوه فى خبر السماء بأنه رسول الله .

○○○

ومن رحمة الله أن يجعل رسوله ﷺ بالمؤمنين رؤفاً رحيماً

يقول الحق سبحانه وتعالى مخبراً عنه ﷺ : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨]
هنا نجد كلمة الرأفة والرحمة من جانب النبى ﷺ جاءت للمؤمنين فقط ، أما الأوصاف الأولى فقد شملت الجميع .

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى فى آية أخرى : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف : ٦] أى : إنك حزين ومهموم بسبب أنهم لم يؤمنوا ، مع أنه لن ينالك شئ فأنت ليس عليك إلا البلاغ فقط ، وقد بلغت فلماذا تحزن عليهم ؟ فالنبى ﷺ لم يكن حزيناً منهم ولكنه كان حزينا من أجلهم ومشفقاً عليهم ؛ لأنه ﷺ رحمة مهداة للعالمين فكان حريصاً على أن يرى قومه مؤمنين ؛ لأنه لحبه لقومه وعشيرته كان يريدهم أن يذوقوا حلاوة الإيمان ، ويسعدوا بالحياة فى ظل منهج السماء ،

ولذلك يقول سبحانه فى آية أخرى: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝ ﴾ [الشعراء] أى : لاتفهم أن إيمانهم صعب علينا ، فلو أردناهم مؤمنين لآمنوا فى الحال ؛ لكن حكمة الله اقتضت ألا يقهر أحداً على الإيمان ؛ لأن الإيمان يأتى بقلوب ، والقهر يأتى بقوالب ، والله يريد أن يأتيه الناس مختارين وعن حب لا عن قهر ؛ لأن القهر من القاهر يثبت له قدرة ولكن لا يثبت له محبوبية .

والله سبحانه وتعالى يريد أن يكون الإيمان نابعاً من محبوبية العابد للمعبود ، من أجل ذلك كله فلا تحزن أو تتعب نفسك من أجلهم ؛ لأن الرسول ﷺ كان يكلف نفسه الصعب فى سبيل نشر الدعوة وزيادة أتباع الدين الحنيف ، ولذلك حينما جاءه رجل مؤمن هو عبد الله بن أم مكتوم يسأله عن قضية الإيمان هذا رجل مؤمن لن يكلفه مشقة فى الحوار أو الجدال ؛ لأنه مؤمن نجد الرسول ﷺ يلوى عنه قلبه وينشغل بمحاورة صناديد قريش المعاندين المكابرين لأنه يؤثر جانب المشقة على

نفسه ولذلك عتب عليه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ① أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ②﴾ [عبس] فكأن الله سبحانه وتعالى يقول له : لماذا تتعب نفسك مع هؤلاء المعاندين إنهم لا يستحقون ذلك ؛ أتترك السهل « ابن أم مكتوم » وتذهب للمشقة ؟ (1) وذلك مثلما يكون عندك ابن في المدرسة ، وظل يذاكر عدة ساعات حتى غلبه النوم ، ولكنه يقاوم النوم حتى يسقط الكتاب من يده عدة مرات ، فتقوم أنت وتأخذ منه الكتاب وتأمره بأن ينام ليستريح ، فأنت لم تنهره عن المذاكرة في حد ذاتها ، ولكنك لا تريده أن يرهق نفسه فيمرض .

فكذلك ربنا سبحانه - ولله المثل الأعلى - لا يريد لرسوله ﷺ أن يتعب نفسه مع هؤلاء الكافرين المعاندين ، وينبهه إلى توجيه هذا الجهد وهذا العطف والحنان الموجه إلى غير مستحقيه إلى المستحقين من المؤمنين ، وذلك بخفض جناحه لهم ؛ حيث يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر: ٨٨] لأن كل حركة نزوعية من الإنسان تحتاج إلى عملية وجدانية أولاً ، فإذا أردت مثلاً أن تكرم إنساناً تأتى صورة الإكرام فى ذهنك

ثم تقوم بتنفيذها بعد ذلك . إذن فكل حركة يصنعها الإنسان نزوعاً تحتاج إلى طاقة داخلية تهيئ لها وتدفعها ، فإذا كان الرسول ﷺ سيحزن على هؤلاء ، فهذا الحزن سيأخذ منه طاقة ، فقال له سبحانه وتعالى : وَفِّر هذه الطاقة من عند هؤلاء الذين لا يستحقونها وجهها لمن يستحقها بل وجهها خَفْضَ جَنَاحٍ ، فالرسول ﷺ الذى جاء ليأخذ بيدنا إلى نور الهداية وإلى طريق الجنة هو الذى يخفض الجناح . انظر للحنان والعطف بين المؤمنين فهو لم يجعلك فقط تتوجه بقلبك ، على استقامة قالبك لا بل جعلك تخفض القالب أيضاً .

وكلمة « خفض الجناح » مأخوذة من خفض جناح الطائر ، فهو يرفع جناحه عندما يطير ، لكن عندما يحنو على فرخه الصغير يخفض جناحه ويلويه عليه عطفاً وحناناً ، وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر: ٨٨] يدل على أن الرسالات ما جاءت لتعالى الرسول على المرسل إليهم ، إنما جاءت لخدمتهم ، ولذلك تجد أقارب النبى ﷺ يحرمون من الأشياء الواجبة لغيرهم ، فأقارب النبى الفقراء لا نعطيهم زكاة ؛ لأن المسألة ليست مسألة قرابة ، حيث كان القريب هو الذى

ولذلك فالقرآن حينما يطبع خلق المؤمن بالله وبالمنهج ولا يعطيه طبعاً واحداً يتعامل به مع كل الناس ، إنما يجعل طبعه الخلقى مطابقاً لمواقف الناس منه ، ولذلك يقول الحق وتعالى: ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة : ٥٤] ويقول أيضاً : ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح : ٢٩] فالاسلام لم يطبع المؤمن على الشدة ولا على العزة لأنه لو طبعه على الشدة لاشتد حتى على من كان معه من المؤمنين ولو طبعه على العزة لاعتز على المؤمن ، ولكنه يريده إنساناً يتفاعل مع المواقف ، فالموقف الذى يحتاج إلى شدة يشتد فيه والموقف الذى يحتاج إلى عزة يعتز فيه والموقف الذى يحتاج إلى اللين يلين فيه ، أى يضع الشئ فى موضعه .

○○○

سعة رحمة اللّه تعالى

أخرج مسلم [١٤/٢٧٥١] عن أبى هريرة رضى اللّه تعالى عنه ، أن النبى ﷺ قال : « لما خلق اللّه الخلق ، كتب فى كتاب ، فهو عنده فَوقَ العرش : إن رحمتى تَغْلِبُ غَضَبى »[1] .

وعنده [١٧/٢٧٥٢] عنه رضى اللّه تعالى عنه قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « جعل اللّه الرحمة مائةَ جُزءٍ ، فأمسَكَ عنده تسعةً وتسعين ، وأنزل فى الأرض جُزءًا واحدًا ، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تُصيبه »[2] .

وعنده [٢٢/٢٧٥٤] عن عمر بن الخطاب رضى اللّه تعالى عنه ؛ أنه قال : قُدِمَ على رسول اللّه ﷺ بِسَبْى ، فإذا امرأة من السبى تبتغى ، إذا وَجَدَت صبيًا فى السبى ، أخذته فألصقته

(١) ووافقه البخارى [٣١٩٤] ، وابن ماجه [٤٢٩٥] .

(٢) ورواه ابن ماجه [٤٢٩٣] .

ببطنها وأرضعته . فقال لنا رسول اللّه ﷺ : « أَتَرَونَ هذه المرأة طارحة ولدها فى النار ؟ » قلنا : لا . واللّه ! وهى تقدر على أن لا تطرحه . فقال رسول اللّه ﷺ : « للّه أرحَمُ بعباده من هذه بولدها »[1] .

وعنده [٢٤/٢٧٥٦] عن أبى هريرة رضى اللّه تعالى عنه أن رسول اللّه ﷺ قال : قال رجل لَمْ يعمَل حَسَنَة قط لأهله : إذا مات فحرقُوهُ ثم اذرُوا نصفه فى البر ونصفه فى البحر ، فواللّه لئن قدر اللّه عليه ليعذبنه عذابًا لا يُعذبُهُ أحدًا من العالمين ، فلما مات الرجل فعلوا ما أمرهم ، فأمر اللّه البَرَّ فجمع ما فيه ، وأمر البحر فجمع ما فيه ، ثم قال : لِمَ فعلت هذا ؟ قال : مِنْ خشيتك يا رب ! وأنت أعلمُ ، فَغَفَرَ اللّه له »[2] .

(١) ووافقه البخارى [٥٩٩٩] .

(٢) ووافقه البخارى [٧٥٠٦] وقال الإمام النووى فى تعليقه على هذه الأحاديث : هذه الأحاديث من أحاديث الرجاء والبشارة للمسلمين .

= قال العلماء : لأنه إذا حصل للإنسان من رحمة واحدة فى هذه الدار – المبنية على الأكدار – بالإسلام والقرآن والصلاة والرحمة فى قلبه وغير ذلك مما أنعم الله تعالى به ، فكيف الظن بمائة رحمة فى الدار الآخرة وهى دار القرار ودار الجزاء .

شرح النووى على مسلم [٩/٨٤] .

قلت : على المسلم أن يضم إلى ذلك حديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ، الذى أخرجه مسلم [٢٦١٩/١٣٥] ، ولفظه : أن رسول الله ﷺ قال : « دخلت امرأة النار من جراء هرة ، أو هر ربطتها ، فلا هى أطعمتها ، ولا هى أرسلتها ترمرم من خشاش الأرض ، حتى ماتت هزلًا » . ليجتمع الخوف والرجاء .

وهذا معنى كلام ابن شهاب الزهرى : « ذلك لئلا يتكل رجل ، ولا ييئس رجلٌ » .

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

○○○

مطابع الاهرام بكورنيش النيل